في ظلال القرآن

الجزء الثالث عشر

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

في ظلال القرآن

الجزء الثالث عشر

بقلم

سيد قطب

الطبعة الأولى

طبع بدار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

من سورة يوسف

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

« وَقَالَ الْمَلِكُ : ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي . فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ : إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ : اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » .

« وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ » .

« وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ، فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ * وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ : ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ . أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ؟ * فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ * قَالُوا : سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ * وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ : اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ، لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » .

« فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا : يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ؛ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ ؛ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ * قَالَ : هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ؟ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ، قَالُوا : يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ، هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ، وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ، وَنَحْفَظُ أَخَانَا ، وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ، ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ * قَالَ : لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ – إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ – فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ : اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * وَقَالَ : يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ ، وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ، وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ » .

« وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ ٱللهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ، وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

« وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ، قَالَ : إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

« فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ؛ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ : أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُوا : وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ؟ * قَالُوا : نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ ، وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ، وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ * قَالُوا : تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُوا : فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ؟ * قَالُوا : جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّالِمِينَ * فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ، ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ . كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ، مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ـ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللهُ ـ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ * قَالُوا : إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ . فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ . قَالَ : أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا ، وَٱللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ * قَالُوا : يَا أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ، فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ * قَالَ : مَعَاذَ ٱللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ، إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ » . .

نمضى فى هــذا الجزء مع قصة يوسف ، فى حلقة جديدة من حلقاتها ـ الحلقة الرابعة ـ وقد وقفنا فى نهاية الجزء الثانى عشر عند نهاية الحلقة الثالثة . وقد أخرج من السجن ، واستدعاه الملك ليكون له شأن معه ، هو الذى سنعرفه فى هذه الحلقة الجديدة .

هذا الجزء يبدأ بآخر فقرة فى المشهد السابق . مشهد الملك يستجوب النسوة اللاتى قطعن أيديهن ـ كما رغب إليه يوسف أن يفعل ـ تمحيصا لتلك المكايد التى أدخلته السجن ، وإعلانا لبراءته على الملأ ، قبل أن يبدأ مرحلة جديدة فى حياته ؛ وقد أحس أنها ستكون مرحلة ظهور فى حياة الدولة ، فيحسن أن يبدأها وكل ماحوله واضح ، ولا شىء من غبار الماضى يلاحقه وهو برىء .

ومع أنه قد تجمل فلم يذكر عن امرأة العزيز شيئا ، ولم يشر إليها على وجه التخصيص ، إنما رغب إلى الملك أن يفحص عن أمر النسوة اللاتى قطعن أيديهن . فإن امرأة العزيز تقدمت لتعلن الحقيقة كاملة : « الآن حصحص الحق . أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى ، إن ربى غفور رحيم » . .

وفى هذه الفقرة الأخيرة تبدو المرأة مؤمنة متحرجة ، تبرىء نفسها من خيانة يوسف فى غيبته ، ولـكنها تتحفظ فلا تدعى البراءة المطلقة ، لأن النفس أمارة بالسوء ـ إلا مارحم ربى ـ ثم تعلن ما يدل على إيمانها بالله ـ ولعل ذلك كان اتباعا ليوسف ـ « إن ربى غفو رحيم »

وبذلك يسدل الستار على ماضى الآلام فى حياة يوسف الصديق . وتبدأ مرحلة الرخاء والعز والتمـكين . .

* * *

« وقال الملك : ائتونى به أستخلصه لنفسى .. فلما كلمه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال : اجعلنى على خزائن الأرض ، إنى حفيظ عليم .. وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنو وكانوا يتقون » . .

لقد تبينت للملك براءة يوسف ، وتبين له معها علمه فى تفسير الرؤيا ، وحكمته فى طلب

تمحيص أمر النسوة ، كذلك تبينت له كرامته وإباؤه ، وهو لا يتهافت على الخروج من السجن ، ولا يتهافت على لقاء الملك . وأى ملك ؟ فرعون مصر ! ولكن يقف وقفة الرجل الكريم المتهم فى سمعته ، المسجون ظلما ، يطلب رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه ؛ ويطلب الكرامة لشخصه قبل أن يطلب الحظوة عند الملك ..

كل أولئك أوقع فى نفس الملك احترام هذا الرجل وحبه فقال : « ائتونى به أستخلصه لنفسى » . . فهو لا يأتى به من السجن ليطلق سراحه ؛ ولا ليرى هذا الذى يفسر الرؤى ؛ ولا ليسمعه كلمة « الرضاء الملكى السامى » فيطير بها فرحا . . كلا ! إنما يطلبه ليستخلصه لنفسه ، ويجعله بمكان المستشار والنجى والصديق ..

فياليت رجالا يمرغون كرامتهم على أقدام الحكام — وهم أبرياء مطلقو السراح — فيضعون النير فى أعناقهم بأيديهم ؛ ويتهافتون على نظرة رضى وكلمة ثناء ، وحظوة الأتباع لا مكانة الأصفياء . . ياليت رجالا من هؤلاء يقرأون هذا القرآن ، ويقرأون قصة يوسف ، ليعرفوا أن الكرامة والإباء والاعتزاز تدر من الربح — حتى المادى — أضعاف مايدره التمرغ والتزلف والانحناء !

« وقال الملك : ائتونى به أستخلصه لنفسى » . . ويحذف السياق جزئية تنفيذ الأمر لنجد يوسف مع الملك ..

« فلما كلمه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين » . . فلما كلمه تحقق له صدق ماتوسمه . فإذا هو يطمئنه على أنه عند الملك ذو مكانة وفى أمان . فليس هو الفتى العبرانى الموسوم بالعبودية . إنما هو مكين . وليس هو المتهم المهدد بالسجن إنما هو أمين . وتلك المكانة وهذا الأمان لدى الملك وفى حماه . فماذا قال يوسف ؟

إنه لم يسجد شكرا كما يسجد للملك رجال الحاشية المتملقون . ولم يقل له عشت يامولاى وأنا عبدك الخاضع أو خادمك الأمين ، كما يقول رؤساء الوزارات للملوك ! كلا إنما طالب بما يعتقد أنه قادر على أن ينهض به من الأعباء فى الأزمة القادمة التى أول بها رؤيا الملك ، خيرا مما ينهض بها أحد فى البلاد ؛ وبما يعتقد أنه سيصون به أرواحا من الموت وبلادا من الخراب ، ومجتمعا من الفتنة — فتنة الجوع — فكان قويا فى إدراكه لحاجة الموقف إلى خبرته وكفايته وأمانته ، قوته فى الاحتفاظ بكرامته وإبائه :

« قال : اجعلني على خزائن الأرض . إني حفيظ عليم » . . والأزمة القادمة وسنو الرخاء التي تسبقها في حاجة إلى الحفظ والصيانة والقدرة على إدارة الأمور بالدقة وضبط الزراعة والمحاصيل وصيانتها . وفي حاجة إلى الخبرة وحسن التصرف والعلم بكافة فروعه الضرورية لتلك المهمة في سنوات الخصب وفي سني الجدب على السواء . ومن ثم ذكر يوسف من صفاته ما تحتاج إليه المهمة التي يرى أنه أقدر عليها ، وأن وراءها خيرا كبيرا لشعب مصر وللشعوب المجاورة : « إني حفيظ عليم » أما خزائن الأرض فيبدو أنها كانت تشمل اختصاص وزارتي المالية والتموين . .

ولم يكن يوسف نفعيا ولا انتهازيا ، وهو يرى إقبال الملك عليه فيطلب أن يجعله على خزائن الأرض . . إنما كان حصيفا في اختيار اللحظة التي يستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعة الضخمة في أشد أوقات الأزمة ؛ وليكون مسؤولا عن إطعام شعب كامل وشعوب كذلك تجاوره طوال سبع سنوات ، لا زرع فيها ولا ضرع . فليس هذا غنما يطلبه يوسف لنفسه . فإن التكفل بإطعام شعب جائع سبع سنوات متوالية لا يقول أحد إنه غنيمة. إنما هي تبعة يهرب منها الرجال ، لأنها قد تكلفهم رؤوسهم ، والجوع كافر ، وقد تمزق الجماهير الجائعة أجسادهم في لحظات الكفر والجنون .

كذلك لم يكن يوسف مزكيا لنفسه وهو يقول : « إني حفيظ عليم » إنما كان يذكر الصفتين الضروريتين للاضطلاع بذلك الواجب الثقيل ، صادقا فيما يقوله ، متحدثا بنعمة الله عليه ، وقد آتاه الله الحكم والعلم .

ولا يثبت السياق أن الملك وافق . فكأنما يقول : إن الطلب تضمن الموافقة ! زيادة في تكريم يوسف ، وإظهار مكانته عند الملك . فيكفي أن يقول ليجاب ، بل ليكون قوله هو الجواب . . ومن ثم يحذف رد الملك ، ويدع القارىء يفهم أنه أصبح في المكان الذي طلبه . ومن ثم لا يكون هناك مكان للرواية المنسوبة لابن عباس ـ رضي الله عنه ـ والتي تقول : إنه لم يسلم المنصب إلا بعد عام . نتيجة أنه لم يذكر الله في هذا المقام . ونحسب أنها رواية غير صحيحة عن ابن عباس .

ويؤيد هذا الذي نقوله تعقيب السياق : «وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث

يشاء نصيب برحمتنا من نشاء . ولا نضيع أجر المحسنين . . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » . .

فعلى هذا النحو من إظهار براءة يوسف ، ومن إعجاب الملك به ، ومن الاستجابة له فيما طلب .. على هذا النحو مكنا ليوسف فى الأرض ، وثبتنا قدميه ، وجعلنا له فيها مكانا ملحوظا . والأرض هى مصر . أو هى هذه الأرض كلها باعتبار أن مصر يومذاك أعظم ممالكها . « يتبوأ منها حيث يشاء » يتخذ منها المنزل الذى يريد ، والمكان الذى يريد ، والمكانة التى يريد . فى مقابل الجب وما فيه من مخاوف ، والسجن وما فيه من قيود « نصيب برحمتنا من نشاء » فنبدله من العسر يسرا ، ومن الضيق فرجا ، ومن الخوف أمنا ، ومن القيد حرية ، ومن الهوان على الناس عزا ومقاما علياً « ولا نضيع أجر المحسنين » الذين يحسنون الإيمان بالله ، والتوكل عليه ، والاتجاه إليه ، ويحسنون السلوك والعمل والتصرف مع الناس . . هذا فى الدنيا « ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » فلا ينقص منه المتاع فى الدنيا وإن كان خيرا من متاع الدنيا ، متى آمن الإنسان واتقى . فاطمأن بإيمانه إلى ربه ، وراقبه بتقواه فى سره وجهره .

وهكذا عوض الله يوسف عن المحنة بعد المحنة ، تلك المكانة فى الأرض وهذه البشرى فى الآخرة . جزاء وفاقا على الإيمان والصبر والإحسان .

* * *

ودارت عجلة الزمن . وطوى السياق دوراتها بما كان فيها طوال سنوات الرخاء . فلم يذكر كيف كان الخصب ، وكيف زرع الناس . وكيف أدار يوسف جهاز الدولة . وكيف نظم ودبر وادخر . كأن هذه كلها أمور مقررة بقوله : « إنى حفيظ عليم » وكذلك لم يذكر مقدم سنى الجدب ، وكيف تلقاها الناس ، وكيف ضاقت الأرزاق . . لأن هذا كله ملحوظ فى رؤيا الملك وتأويلها : « ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون » .. كذلك لم يبرز السياق الملك ولا أحدا من رجاله بعد ذلك فى السورة كلها . كأن الأمر كله قد صار ليوسف . الذى اضطلع بالعبء فى الأزمة الخانقة الرهيبة . وأبرز يوسف وحده على مسرح الحوادث ، وسلط عليه كل الأضواء . وهذه حقيقة استخدمها السياق استخداما فنيا كاملا فى الأداء .

أما فعل الجدب فقد أبرزه السياق فى مشهد إخوة يوسف ، يجيئون من البدو من أرض كنعان البعيدة يبحثون عن الطعام فى مصر . ومن ذلك ندرك اتساع دائرة المجاعة ، كما ندرك كيف وقفت مصر – بتدبير يوسف – منها ، وكيف صارت قبلة جيرانها ومخزن الطعام فى المنطقة كلها . وفى الوقت ذاته تمضى قصة يوسف فى مجراها الأكبر بين يوسف وإخوته وهى سمة فنية تحقق هدفا دينيا فى السياق :

« وجاء إخوة يوسف ، فدخلوا عليه ، فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال : ائتونى بأخ لكم من أبيكم . ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ؟ فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون . قالوا : سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون . وقال لفتيانه : اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم ، لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » . .

لقد اجتاح الجدب والمجاعة أرض كنعان وما حولها . فاتجه إخوة يوسف – فيمن يتجهون – إلى مصر . وقد تسامع الناس بما فيها من فائض الغلة منذ السنوات السمان . وهانحن أولاء نشهدهم يدخلون على يوسف ، وهم لا يعلمون . إنه يعرفهم فهم هم لم يتغيروا كثيرا . أما يوسف فإن خيالهم لا يتصور قط أنه هو ذاك ! وأين الغلام العبرانى الصغير الذى ألقوه فى الجب منذ عشرين عاما[1] من عزيز مصر شبه المتوج فى سنه وزيه وحرسه ومهابته وخدمه وحشمه وهيله وهيلمانه ؟ .

ولم يكشف لهم يوسف عن نفسه . فلا بد من دروس يتلقونها . « فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون » . .

ولكنا ندرك من السياق أنه أنزلهم منزلا طيبا ، ووفى لهم الكيل مع السماحة ، ثم أخذ فى إعداد الدرس الأول :

« ولما جهزهم بجهازهم قال : ائتونى بأخ لكم من أبيكم » . . فنفهم من هذا أنه تركهم يأنسون إليه ، واستدرجهم حتى ذكروا له من هم على وجه التفصيل ، وأن لهم أخا أصغر من أبيهم لم يحضر معهم لأن أباه يحبه ولا يطيق فراقه . فلما جهزهم بالغلة ، وعلف الرواحل ، وحاجات الرحلة قال لهم : إنه يريد أن يرى أخاهم هذا عند ما يجيئون فى المرة القادمة لشراء غلات وأعلاف جديدة – ويبدو أن يوسف كان يعطى الناس على دفعات على نظام يشبه نظام

(١) وهو المتوقع بعد سنوات الاقامة فى بيت العزيز وبضع سنين فى السجن وسبع سنوات رخاء وبعض سنى الجدب حتى جاءوا .

البطاقات ، ليوازن بين حاجات المحتاجين والزمن الطويل الذى يضطلع فيه بالتموين . فلم يكن كل من يملك الشراء يشترى المقادير التى يستطيع شراءها ليخزنها ويموت الآخرون . وقيل — وفى السياق دلالة عليه — إنه كان يعطى كل فرد فى الفترة الواحدة حمل بعير ، وهو مقدار معلوم .

« قال : ائتونى بأخ لكم من أبيكم » . وقد رأيتم أننى أوفى الكيل فسأوفيه نصيبه حين يجىء معكم ، ورأيتم أنى أكرم النزلاء فلا خوف عليه بل سيلقى منى الإكرام المعهود : « ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ؟ » . .

ولما كانوا يعلمون كيف يضن أبوهم بأخيهم الأصغر — وبخاصة بعد ذهاب يوسف — فقد أظهروا أن الأمر ليس ميسورا ، وإنما فى طريقه عقبات من ممانعة أبيهم ، وأنهم سيحاولون إقناعه ، مع توكيد عزمهم — على الرغم من هذه العقبات — على إحضاره معهم حين يعودون :

« قالوا : سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون » . . ولفظ نراود يصور الجهد الذى يعلمون أنهم باذلوه . .

أما يوسف فقد أمر غلمانه أن يدسوا البضاعة التى حضر بها إخوته ليستبدلوا بها القمح والعلف . وقد تكون خليطا من نقد ومن غلات صحراوية أخرى من غلات الشجر الصحراوى ، ومن الجلود والشعر وسواها مما كان يستخدم فى التبادل فى الأسواق . . أمر غلمانه بدسها فى رحالهم — والرحل متاع المسافر — لعلهم يعرفون حين يرجعون أنها بضاعتهم التى جاءوا بها ، فيدعوهم هذا إلى العودة ، للتوفية بالثمن — على ما يعلم من أخلاق بيته — أو ليشجعهم هذا الإكرام على العودة بأخيهم إليه : « وقال لفتيانه : اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » . .

* * *

وندع يوسف فى مصر . لنشهد يعقوب وبنيه فى أرض كنعان . دون كلمة واحدة عن الطريق وما فيه :

« فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا : ياأبانا منع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل ، وإنا له

لحافظون . قال : هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ؟ فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين . ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، قالوا : ياأبانا مانبغى . هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ونمير أهلنا ، ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير . ذلك كيل يسير . قال : لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله : لتأتننى به ـ إلا أن يحاط بكم ـ فلما آتوه موثقهم قال : الله على مانقول وكيل » ..

ويبدو أنهم فى دخلتهم على أبيهم ، وقبل أن يفكوا متاعهم ، عاجلوه بأن الكيل قد تقرر منعه عنهم مالم يأتوا العزيز مصر بأخيهم الصغير معهم . أو أنه الكيل لأخيهم الصغير هو الذى منع لأنه لم يحضر ، فلم يعطهم العزيز نصيبه . فهم يطلبون إليه أن يرسل معهم أخاهم الصغير ليكتالوا له ، أو ليكون لهم حق الشراء فى المرة القادمة . وهم يعدون بحفظه : « وإنا له لحافظون » ..

ولا بد أن هذا الوعد قد أثار كوامن يعقوب . فهو ذاته وعدهم له فى يوسف ! فإذا هو يجهر بما أثاره الوعد من شجونه : « قال : هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ! » فخاونى من وعودكم وخاونى من حفظكم ، فإذا أنا طلبت الحفظ لولدى والرحمة بى « فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » !

وبعد الاستقرار من المشوار ، والراحة من السفر فتحوا أوعيتهم ليخرجوا مافيها من غلال . فإذا هم يجدون فيها بضاعتهم التى ذهبوا يشترون بها ، مردودة إليهم مع الغلال . ورد الثمن يشير إلى عدم الرغبة فى البيع مرة أخرى ، أو هو إنذار بذلك ، واعتبار المرة الأولى هدية أو مايشبه ذلك .

أو أن هنالك تفسيرا آخر لما حدث . وهو أن يوسف لم يعطهم قمحا ، إنما وضع لهم بضاعتهم فى رحالهم . فلما عادوا قالوا : ياأبانا منع منا الكيل ، وفتحوا رحالهم فوجدوا بضاعتهم . وكان ذلك ليضطرهم إلى العودة بأخيهم ، وكان هذا بعض الدرس الذى عليهم أن يأخذوه .

على أية حال لقد اتخذوا من رد بضاعتهم إليهم دليلا على أنهم غير باغين فيما يطلبون من استصحاب أخيهم ولا ظالمين : « قالوا : ياأبانا مانبغى . هذه بضاعتنا ردت إلينا » .. ثم أخذوا يحرجونه بالتلويح له بمصلحة أهلهم الحيوية فى الحصول على الطعام « ونمير أهلنا » والميرة

الزاد ، ويؤكدون له عزمهم على حفظ أخيهم «ونحفظ أخانا» ويرغبونه بزيادة الكيل لأخيهم « ونزداد كيل بعير » وهو ميسور لهم حين يرافقهم « ذلك كيل يسير » ..

واستسلم الرجل على كره ، ولكنه جعل لتسليم ابنه الباقى شرطا : « قال: لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم » أى لتقسمن لى بالله قسما يربطكم ، أن تردوا على ولدى إلا إذا غلبتم على أمركم غلبا لا حيلة لكم فيه ، ولا تجدى مدافعتكم عنه « إلا أن يحاط بكم » وهو كناية عن أخذ المسالك كلها عليهم . فأقسموا « فلما آتوه موثقهم قال : الله على مانقول وكيل » زيادة فى التوكيد والتذكير .

وبعد هذا الموثق جعل الرجل يوصيهم بما خطر له فى رحلتهم القادمة ومعهم الصغير العزيز :

« وقال : يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة . وما أغنى عنكم من الله من شىء . إن الحكم إلا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون » . .

وسار الركب ، ونفذوا وصية أبيهم :

« ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ، ما كان يغنى عنهم من الله من شى — إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها — وإنه لذو علم لما علمناه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ..

فيم كانت هذه الوصية ؟ لم قال لهم أبوهم : لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ؟ :

تضرب الروايات والتفاسير فى هذا وتبدىء وتعيد . بلا ضرورة بل ضد مايقتضيه السياق القرآنى الحكيم . فلو كان السياق يحب أن يكشف عن السبب لقال . ولكنه قال فقط — إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها — فينبغى أن يقف المفسرون عندما أراده السياق ، احتفاظا بالجو الذى أراده . والجو يوحى بأنه كان يخشى شيئا عليهم ، ويرى فى دخولهم من أبواب متفرقة اتقاء لهذا الشىء مع تسليمه بأنه لا يغنى عنهم من الله من شىء . فالحكم كله إليه ، والاعتماد كله عليه . إنما هو خاطر شعر به ، وحاجة فى نفسه قضاها بالوصية ، وهو على علم بأن إرادة الله نافذة . فقد علمه الله هذا فتعلم ، « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . .

ثم ليكن هذا الشىء الذى كان يخشاه هو العين الحاسدة ، أو هى غيرة الملك من كثرتهم

وفتوتهم . أو هو تتبع قطاع الطريق لهم . أو كائنا ما كان فهو لا يزيد شيئا فى الموضوع . سوى أن يجد الرواة والمفسرون بابا للخروج عن الجو القرآنى المؤثر إلى قال وقيل ، مما يذهب بالجو القرآنى كله فى كثرة الأحايين !

فلنطو نحن الوصية والرحلة كما طواها السياق ، لنلتقى بإخوة يوسف فى المشهد التالى بعد الوصول :

* * *

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه . قال : إنى أنا أخوك ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون » .،

ونجد السياق هنا يعجل بضم يوسف لأخيه فى المأوى ، وإطلاعه على أنه هو أخوه ؛ ودعوته لأن يترك من خاطره ذكرى مافعله إخوته به من قبل ، وهى ذكرى لا بد كان يبتئس لها الصغير كلما علمها من البيت الذى كان يعيش فيه . فما كان يمكن أن تكون مكتومة عنه فى وسطه فى أرض كنعان .

يعجل السياق بهذا ، بينما الطبيعى والمفهوم أن هذا لم يحدث فور دخولهم على يوسف . ولكن بعد أن اختلى يوسف بأخيه . ولكن هذا ولا شك كان أول خاطر ساور يوسف عند دخولهم عليه ، وعند رؤيته لأخيه ، بعد الفراق الطويل .

ومن ثم جعله السياق أول عمل لأنه كان أول خاطر . وهـذه من دقائق التعبير فى هذا الكتاب العجيب !

ويطوى السياق كذلك فترة الضيافة ومادار فيها بين يوسف وإخوته ليعرض مشهد الرحيل الأخير . فنطلع على تدبير يوسف ليحتفظ بأخيه ، ريثما يتلقى إخوته درسا أو دروسا ضرورية لهم ، وضرورية للناس فى كل زمان ومكان :

« فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ؛ ثم أذن مؤذن : أيتها العير إنكم لسارقون . قالوا — وأقبلوا عليهم — ماذا تفقدون ؟ قالوا : نفقد صواع الملك ، ولمن جاء به حمل بعير ، وأنا به زعيم . قالوا : تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض ، وماكنا سارقين .

قالوا : فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ . قالوا : جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزى الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ـ كذلك كدنا ليوسف ، ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك ، إلا ان يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم ـ قالوا : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل . فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم . قال : أنتم شر مكانا . والله أعلم بما تصفون . قالوا : ياأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا ، فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين . قال : معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده . إنا إذن لظالمون » ..

وهو مشهد مثير ، حافل بالحركات والانفعالات والفاجآت ، كأشد ماتكون مشاهد المسرح حيوية وحركة وانفعالا غير أن هذا صورة من الواقع يعرضها التعبير القرآنى هذا العرض الحى الأخاذ .

فمن وراء الستار يدس يوسف كأس الملك ـ وهى عادة من الذهب أيام الفراعنة ـ وقيل : إنها كانت تستخدم للشراب ، ويستخدم قعرها الداخل المجوف من الناحية الأخرى فى كيل القمح ، لندرته وعزته فى تلك المجاعة . يدسها فى الرحل المخصص لأخيه ، تنفيذا لتدبير خاص ألهمه الله له وسنعلمه بعد قليل .

ثم ينادى مناد بصوت مرتفع ، فى صيغة إعلان عام ! « أيتها العير إنكم لسارقون » وهم منصرفون .

ويرتاع إخوة يوسف لهذا النداء الذى يتهمهم بالسرقة وهم أبناء يعقوب بن اسحاق ابن ابراهيم ـ فيعودن أدراجهم يتبينون الأمر المريب : « قالوا ـ وأقبلوا عليهم ـ ماذا تفقدون ؟ »

قال الغلمان الذين يتولون تجهيز الرحال . أو الحراس ومنهم هذا الذى أذاع بالاعلان :

«قالوا : نفقد صواع الملك » .. وأعلن المؤذن أن هناك مكافأة لمن يحضره متطوعا . وهى مكافأة ثمينة فى هذه الظروف : « ولمن جاء به حمل بعير » من القمح العزيز « وأنا به زعيم» أى كفيل .

ولكن القوم مستيقنون من براءتهم ، فهم لم يسرقوا ، وما جاءوا ليسرقوا ويجترحوا هذا الفساد الذى يخلخل الثقة والعلاقات فى المجتمعات فهم يقسمون واثقين :

« قالوا : تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد في الأرض » فقد علمتم من حالنا ومظهرنا ونسبنا أننا لا نجترح هذا « وما كنا سارقين » أصلا فما يقع منا مثل هذا الفعل الشنيع .

قال الغلمان أو الحراس : « فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ » . .

وهنا ينكشف طرف التدبير الذى ألهمه الله يوسف . فقد كان المتبع فى دين يعقوب : أن يؤخذ السارق رهينة أو أسيرا أو رقيقا فى مقابل ما يسرق . ولما كان إخوة يوسف موقنين بالبراءة . فقد ارتضوا تحكيم شريعتهم فيمن يظهر أنه سارق . ذلك ليتم تدبير الله ليوسف وأخيه : « قالوا : جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه . كذلك نجزى الظالمين » . وهذه هى شريعتنا نحكمها فى السارق . والسارق من الظالمين .

كل هذا الحوار كان على منظر ومسمع من يوسف . فأمر بالتفتيش . وأرشدته حصافته إلى أن يبدأ برحالهم قبل رحل أخيه ، كى لا يثير شبهة فى نتيجة التفتيش : « فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه . ثم استخرجها من وعاء أخيه » ! .

ويدعنا السياق نتصور الدهشة بالمفاجأة العنيفة لأبناء يعقوب الموقنين ببراءتهم ، الحالفين ، المتحدين . . فلا يذكر شيئا عن هذا ، بل يتركه يتملاه الخيال على الصورة التى تكمل رسم المشهد بانفعالاته . بينما يأخذ فى التعقيب ببعض مرامى القصة ، ريثما يفيق النظارة وأبناء يعقوب مما هم فيه :

« كذلك كدنا ليوسف » ودبرنا له هذا التدبير الدقيق . «ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك» فلو حكم شريعة الملك ما تمكن من أخذ أخيه ، إنما كان يعاقب السارق على سرقته ، دون أن يستولى على أخيه كما استولى عليه بتحكيم إخوته لدينهم هم . وهذا هو تدبير الله الذى ألهم يوسف أسبابه . وهو كيد الله له . والكيد يطلق على التدبير فى الخفاء للخير أو للشر سواء . وإن كان الشر قد غلب عليه . وظاهر الأمر هنا أنه شر يحل بأخيه وهو شر يحل بإخوته لإحراجهم أمام أبيه . وهو سوء — ولو مؤقتا — لأبيه . فلهذا اختار تسميته كيدا على إجمال اللفظ وبالإلماع إلى ظاهره . وهو من دقائق التعبير .

« ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك » . . « إلا أن يشاء الله » فيدبر مثل هذا التدبير الذى رأيناه .

ويتضمن التعقيب الإشارة إلى ما ناله يوسف من رفعة : « نرفع درجات من نشاء » وإلى ما ناله من علم ، مع التنبيه إلى أن علم الله هو الأعلى : « وفوق كل ذى علم عليم » وهو احتراس لطيف دقيق .

ثم نعود إلى إخوة يوسف بعد هذا التعقيب القصير « نعود إليهم وقد حرك الحرج الذى يلاقونه كوامن حقدهم على أخي يوسف ، وعلى يوسف من قبله ، فإذا هم يتنصلون من نقيصة السرقة ، وينفونها عنهم ، ويلقونها على هذا الفرع من أبناء يعقوب : « قالوا : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » ! .

إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل . . وتنطلق الروايات والتفاسير تبحث عن مصداق قولهم هذا فى تعلات وحكايات وأساطير . كأنهم لم يكذبوا قبل ذلك على أبيهم فى يوسف ؛ وكأنهم لا يمكن أن يكذبوا على عزيز مصر دفعا للتهمة التى تحرجهم ، وتبرؤا من يوسف وأخيه السارق ، وإرواء لحقدهم القديم على يوسف وأخيه ؟ ! .

لقد قذفوا بها يوسف وأخاه « فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم » أسر هذه الفعلة وحفظها فى نفسه ، ولم يبد تأثره منها . وهو يعلم براءته وبراءة أخيه . إنما قال لهم : « أنتم شر مكانا » . . يعنى أنكم بهذا القذف شر مكانا عند الله من المقذوف — وهى حقيقة لا شتمة — « والله أعلم بما تصفون » وبحقيقة ما تقولون . وأراد بذلك قطع الجدل فى الاتهام الذى أطلقوه ، ولا دخل له بالموضوع ! .

وعندئذ عادوا إلى الموقف المحرج الذى وقعوا فيه . عادوا إلى الموثق الذى أخذه عليهم أبوهم : « لتأتننى به إلا أن يحاط بكم » فراحوا يسترحمون يوسف باسم والد الفتى ، الشيخ الكبير ، ويعرضون أن يأخذ بدله واحدا منهم إن لم يكن مطلقه لخاطر أبيه ؛ ويستعينون فى رجائه بتذكيره بإحسانه وصلاحه وبره لعله يلين :

« قالوا : يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا ، فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين » . .

ولكن يوسف كان يريد أن يلقى عليهم درسا . وكان يريد أن يشوقهم إلى المفاجأة التى بعدها لهم ولوالده وللجميع ! ليكون وقعها أعمق وأشد أثرا فى النفوس :

« قال : معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده . إنا إذن لظالمون » . .

ولم يقل أن نأخذ بريئا بجريرة سارق . لأنه كان يعلم أن أخاه ليس بسارق . فعبر أدق تعبير يحكيه السياق هنا باللغة العربية بدقة[1] « معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده » وهى الحقيقة الواقعة دون زيادة فى اللفظ تحقق الاتهام أو تنفيه .. « إنا إذن لظالمون » وما نريد أن نكون ظالمين . .

وكانت هى الكلمة الأخيرة فى الموقف . وعرفوا أن لا جدوى بعدها من الرجاء ، فانسحبوا يفكرون فى موقفهم المحرج ، أمام أبيهم حين يرجعون .

•

« فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا . قَالَ كَبِيرُهُمْ : أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ؟ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ؟ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ، أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ ، فَقُولُوا : يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ، وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ، وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ * وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ، وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ، وَإِنَّا لَصَادِقُونَ .

« قَالَ : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

« وَتَوَلَّى عَنْهُمْ ، وَقَالَ : يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ ! وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ * قَالُوا : تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ

---

(١) كان يوسف يتكلم العبرية لغة أهله واللغة المصرية القديمة لغة وسطه . والمفهوم أنه كان يخاطبهم بالمصرية فيعرفونها أو تترجم لهم .

ٱلْهَالِكِينَ ! * قَالَ : إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى ٱللهِ ، وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * يَا بَنِيَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ، وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ ٱللهِ ، إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ ٱللهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ .

« فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا : يَا أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ، وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ ، فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ ، وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا . إِنَّ ٱللهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ * قَالَ : هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ؟ * قَالُوا : أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ؟ قَالَ : أَنَا يُوسُفُ ، وَهَذَا أَخِي ، قَدْ مَنَّ ٱللهُ عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * قَالُوا : تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ ٱللهُ عَلَيْنَا ، وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ : لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ، يَغْفِرُ ٱللهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ * ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ، وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ .

« وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ : إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ، لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ * قَالُوا : تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ ٱلْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَنْ جَاءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ، قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ : إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ ٱللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قَالُوا : يَا أَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ، إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ : سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ .

« فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ، وَقَالَ : ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ ٱللهُ آمِنِينَ * وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ، وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ، وَقَالَ : يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ، قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ ، وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ ٱلْبَدْوِ — مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ ٱلشَّيْطَانُ — بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ .

« رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، أَنْتَ وَلِيِّي فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ، تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ، وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » ..

يئس إخوة يوسف من محاولة تخليص أخيهم الصغير ، فانصرفوا من عنده وعقدوا مجلسا يتشاورون فيه . وهم هنا فى هذا المشهد يتناجون . والسياق لا يذكر أقوالهم جميعا . إنما يثبت آخرها الذى يكشف عما انتهوا إليه :

« فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا . قال كبيرهم : ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ، ومن قبل مافرطتم فى يوسف ؟ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى ، وهو خير الحاكمين . اذهبوا إلى أبيكم فقولوا : ياأبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون » ..

إن كبيرهم ليذكرهم بالموثق المأخوذ عليهم ، كما يذكرهم بتفريطهم فى يوسف من قبل . ويقرن هذه إلى تلك ثم يرتب عليهما قراره الجازم ألا يبرح مصر وألا يواجه أباه ، إلا أن يأذن له أبوه ، أو يقضى الله له بحكم كائنا ما كان فإنه يخضع له وينصاع .

أما هم فقد طلب إليهم أن يرجعوا إلى أبيهم فيخبروه صراحة بأن ابنه سرق فأخذ بما سرق . ذلك ماعلموه شهدوا به ؛ أما إن كان بريئا وكان هناك أمر وراء هذا الظاهر لا يعلمونه فهم غير موكلين بالغيب . كما أنهم لم يكونوا يتوقعون أن يحدث ماحدث ، فذلك كان غيبا لهم ، وماهم بحافظين للغيب وإن كان فى شك من قولهم فليسأل أهل القرية التى كانوا فيها — وهى عاصمة مصر والقرية اسم للحاضرة وهى خلاف البادية — وليسأل القافلة التى كانوا فيها ، فهم لم يكونوا وحدهم ، فالقوافل الكثيرة كانت ترد مصر لتمتار الغلة فى السنين العجاف ..

* * *

ويطوى السياق الطريق بهم ، حتى يقفهم فى مشهد أمام أبيهم الفجوع ، وقد أفضوا إليه بالنبأ الفظيع . فلا نسمع إلارده قصيرا سريعا ، شجيا وجيعا . ولكن وراءه أملا لم ينقطع فى الله أن يرد عليه ولديه ، أو أولاده الثلاثة بما فيهم كبيرهم الذى أقسم لا يبرح حتى يحكم الله له . وإنه لأمل عجيب فى ذلك القلب الوجيع :

« قال : بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، عسى الله أن يأتينى بهم جميعا . إنه هو العليم الحكيم » . .

« بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل » كلمته ذاتها يوم فقد يوسف . ولكنه فى هذه المرة يضيف إليها هذا الأمل أن يرد الله عليه يوسف وأخاه فيرد ابنه الآخر المتخلف هناك . « إنه هو العليم الحكيم » الذى يعلم حاله ، ويعلم ماوراء هذه الأحداث والامتحانات ، ويأتى بكل أمر فى وقته المناسب ، عندما تتحقق حكمته فى ترتيب الأسباب والنتائج .

هذا الشعاع من أين جاء إلى قلب هذا الرجل الشيخ ؟ إنه الرجاء فى الله . والإحساس الداخلى الذى قلما يكذب فى مثل هذه القلوب .

« وتولى عنهم وقال : ياأسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » . .

وهى صورة مؤثرة للوالد الفجوع . يحس أنه منفرد بهمه ، وحيد بمصابه ، لا تشاركه هذه القلوب التى حوله ولا تجاوبه ، فينفرد فى معزل ، يندب فجيعته فى ولده الحبيب . يوسف . الذى لم ينسه ، ولم تهون من مصيبته السنون ، والذى تذكره به نكبته الجديدة فى أخيه الأصغر فتغلبه على صبره الجميل : « ياأسفا على يوسف ! » ويكظم الرجل حزنه ويتجلد فيؤثر هذا الكظم فى أعصابه حتى تبيض عيناه حزنا وكمدا . .

ويبلغ الحقد بقلوب بنيه ألا يرحموا مابه ، وأن يلسع قلوبهم ليوسف وحزنه عليه ذلك الحزن الكامد الكظيم ، فلا يسرون عنه ، ولا يعزونه ، ولا يعللونه بالرجاء ، بل يريدون ليطمسوا فى قلبه الشعاع الأخير :

« قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ! » . .

وهى كلمة حانقة مستنكرة . تالله تظل تذكر يوسف ويهدك الحزن عليه حتى تذوب حزنا أو تهلك أسى بلا جدوى . فيوسف ميئوس منه قد ذهب ولن يعود .

ويرد عليهم الرجل بأن يتركوه لربه ، فهو لا يشكو لأحد من خلقه ، وهو على صلة بربه غير صلتهم ، ويعلم من رحمته ما لا يعلمون فيؤمل فى فرجه المنظور .

« قال : إنما أشكو بثى[1] وحزنى إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون » .

ثم يوجههم إلى تلمس يوسف وأخيه ، وألا ييأسوا من رحمة الله ، فى العثور عليهما ، فإن رحمة الله واسعة وفرجه دائما منظور :

« يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله . إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » . .

فيا للقلب الموصول بالله ! يستشعر رحمته فى أحرج ساعات الشدة ، ويرجو فرجه فى أشد ساعات الضيق .

« يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه » . . تحسسوا بحواسكم ، فى لطف وبصر وصبر على البحث . ودون يأس من عون الله وفرجه ورحمته . وكلمة « روح » أدق دلالةوأكثر شفافية . ففيها ظل الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسم على الأرواح من روح الله الندى : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » فأما المؤمنون المتصلة قلوبهم بالله الندية أرواحهم بروحه ، الشاعرون بنفحاته المحيية الرخية فإنهم لا ييأسون من روح الله ولو أحاط بهم الكرب ، واشتد بهم الضيق . وإن المؤمن لفى روح من ظلال إيمانه ، وفى أنس من صلته بربه ، وفى طمأنينة من ثقته بمولاه . وهو فى مضايق الشدة ومخانق الكروب . .

* * *

ويدخل إخوة يوسف مصر للمرة الثالثة ، وقد أضرت بهم المجاعة ، ونفدت منهم النقود ، وجاءوا ببضاعة رديئة هى الباقية لديهم يشترون بها الزاد . . يدخلون وفى حديثهم انكسار لم يعهد فى أحاديثهم من قبل ، وشكوى من المجاعة تدل على ما فعلت بهم الأيام :

« فلما دخلوا عليه قالوا : يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة ، فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين » . .

---

(١) همى ومصيبتى .

وعندما يبلغ الأمر بهم إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار لا تبقى فى نفس قدرة على المضى فى تمثيل دور العزيز ، والتخفى عنهم بحقيقة شخصيته . فقد انتهت الدروس وحان وقت المفاجأة الكبرى التى لا تخطر لهم على بال ؛ فإذا هو يترفق فى الإفضاء بالحقيقة إليهم ، فيعود بهم إلى الماضى البعيد الذى يعرفونه وحدهم ، ولم يطلع عليه أحد إلا الله :

« قال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ » !! .

ورن فى آذانهم صوت لعلهم يذكرون شيئا من نبراته . ولاحت لهم ملامح وجه لعلهم لم يلتفتوا إليها وهم يرونه فى سمت عزيز مصر وأبهته وشياته . والتمع فى نفوسهم خاطر من بعيد :

« قالوا : أئنك لأنت يوسف ؟ » . . أئنك لأنت فالآن تدرك قلوبهم وجوارحهم وآذانهم ظلال يوسف الصغير فى ذلك الرجل الكبير . . « قال : أنا يوسف . وهذا أخى . قد من الله علينا . إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » . .

مفاجأة ! مفاجأة عجيبة . يعلنها لهم يوسف ويذكرهم فى إجمال بما فعلوه بيوسف وأخيه فى دفعة الجهل . . ولا يزيد . . سوى أن يذكر منة الله عليه وعلى أخيه ، معللا هذه المنة بالتقوى والصبر وعدل الله فى الجزاء .

أما هم فتتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف ، ويجللهم الخزى والخجل وهم يواجهونه محسنا إليهم وقد أساءوا . حليما بهم وقد جهلوا . كريما معهم وقد وقفوا منه موقفا غير كريم :

« قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين » . .

اعتراف بالخطيئة ، وإقرار بالذنب ، وتقرير لما يرونه من إيثار الله له عليهم بالمكانة والحلم والتقوى والإحسان . يقابله يوسف بالصفح والعفو وإنهاء الموقف المخجل . شيمة الرجل الكريم . وينجح يوسف فى الابتلاء بالنعمة كما نجح من قبل فى الابتلاء بالشدة . إنه كان من المحسنين .

« قال : لا تثريب عليكم اليوم . يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » . .

لا مؤاخذة لكم ولا تأنيب اليوم . فقد انتهى الأمر من نفسى ولم تعد له جذور . والله يتولاكم بالمغفرة وهو أرحم الراحمين . . ثم يحول الحديث إلى شأن آخر . شأن أبيه الذى

ابيضت عيناه من الحزن . فهو معجل إلى تبشيره . معجل إلى لقائه . معجل إلى كشف ما علق بقلبه من حزن وما ألم بجسمه من ضنى ، وما أصاب بصره من كلال :

« اذهبوا بقميصى هذا ، فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا ، وأتونى بأهلكم أجمعين » . .

كيف عرف يوسف أن رائحته سترد على أبيه بصره الكليل ؟ ذلك مما علمه الله . وذلك معهود قريب فى مثل هذه الحالات التى تتأثر بها الأعصاب ، والمفاجآت السارة تصنع فى كثير من هذه الحالات فعل المعجزات .

***

ومنذ اللحظة نحن أمام مفاجأة فى القصة بعد مفاجأة ، حتى تنتهى مشاهدها المثيرة بتأويل رؤيا الصبي الصغير .

« ولما فصلت العير قال أبوهم : إنى لأجد ريح يوسف . لولا أن تفندون » . .

ريح يوسف ! كل شىء إلا هذا . فما يخطر على بال أحد أن يوسف بعد فى الأحياء بعد هذا الأمد الطويل . وأن له ريحا يشمها هذا الشيخ الكليل .

إنى لأجد ريح يوسف . لولا أن تقولوا شيخ خرف : « لولا أن تفندون » لصدقتم معى ما أجده من ريح الغائب البعيد .

كيف وجد يعقوب ريح يوسف منذ أن فصلت العير . ومن أين فصلت ؟ يقول المفسرون: إنها منذ فصلت من مصر ، وأنه شم رائحة القميص من هذا المدى البعيد .

ونحن لا ننكر أن خارقة من الخوارق يمكن أن تقع لنبى كيعقوب من ناحية نبى كيوسف غير أن الأمر لا يحتاج إلى افتراض وقوع خارقة . فكثير من الأمهات والآباء يحسون بقرب لقاء أبنائهم الفارقين حين يشفهم الشوق والحنين ، فتشف أحاسيسهم باللقاء الآتى القريب . وهم يعبرون تعبيرا يقرب من تعبير يعقوب عن رائحة الحبايب الفارقين الآتين ! .

« قالوا : تالله . إنك لفى ضلالك القديم » . . فى ضلالك بيوسف ، وضلالك بانتظاره وقد ذهب مذهب الذى لا يعود .

ولكن المفاجأة البعيدة تقع ، وتتبعها مفاجأة أخرى :

« فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه ، فارتد بصيرا » . .

مفاجأة القميص وهو دليل على يوسف وقرب لقياه . ومفاجأة ارتداد البصر بعد ما ابيضت عيناه . . وهنا يذكر يعقوب صلته بالله التي حدثهم بها من قبل فلم يفهموه :

« قال : ألم أقل لكم : إني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟ » . .

« قالوا : يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين » . .

ونلمح هنا أن في قلب يعقوب شيئا من بنيه ، وأنه لم يصف لهم بعد ، وإن كان يعدهم باستغفار الله لهم بعد أن يصفو ويسكن ويستريح :

« قال : سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم » .

وحكاية عبارته بكلمة « سوف » لا تخلو من إشارة إلى قلب مكلوم . .

* * *

ويمضي السياق في مفاجآت القصة . فيطوي الزمان والمكان ، لنلتقي في المشهد النهائي المؤثر المثير :

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه . وقال : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش ، وخروا له سجدا ، وقال : يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا . وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو ، من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي . إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » . .

ويا له من مشهد . بعد كر الأعوام وانقضاء الأيام . وبعد اليأس والقنوط . وبعد الألم والضيق . وبعد الامتحان والابتلاء . وبعد الشوق المضني والحزن الكامد واللهف الظامىء الشديد .

يا له من مشهد حافل بالانفعال والدموع والفرح والخفقات ! .

ويا له من مشهد ختامي موصول بمطلع القصة : ذلك في ضمير الغيب وهذا في واقع الحياة .

ويوسف بين هذا كله يذكر الله ولا ينساه : « ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين » أي آمنين

بمشيئة الله. ويذكر رؤياه ويرى تأويلها بين يديه فى انحناء إخوته له ــ وقد رفع أبويه على السرير الذى يجلس عليه ــ كما رأى الأحد عشر كواكب والشمس والقمر له ساجدين : « ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا » . . ثم يذكر نعمة الله عليه : « وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو » بعد ما تقطعت الأواصر بين الإخوة بوسوسة الشيطان : « من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى » ويذكر لطف الله فى تدبيره ، وتحقيق مشيئته : « إن ربى لطيف لما يشاء » يناله بلطف ودقة خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها « إنه هو العليم الحكيم » . . ذات التعبير الذى قاله يعقوب وهو يقص عليه رؤياه فى مطلع القصة : « إن ربك عليم حكيم » .. ليتوافق البدء والختام حتى فى العبارات .

* * *

وقبل أن يسدل الستار على المشهد الأخير المثير نشهد يوسف ينزع نفسه من اللقاء والعناق والفرحة والابتهاج ، ليتجه إلى ربه فى تسبيح الشاكر الذاكر ! كل دعوته وهو فى أبهة السلطان ، وفى فرحة تحقيق الأحلام .. كل دعوته أن يتوفاه ربه مسلما وأن يلحقه بالصالحين :

«رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحاديث . فاطر السموات والأرض أنت ولىي فى الدنيا والآخرة . توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » ..

« رب قد آتيتنى من الملك » . . آتيتنى منه سلطانه ومكانه وجاهه وماله . فذلك من نعمة الدنيا .

« وعلمتنى من تأويل الأحاديث » . . إدراك مآلاتها وتعبير رؤاها . فذلك من نعمة العلم .

نعمتك يا ربى أذكرها وأعددها ..

يا « فاطر السماوات والأرض » . . خلقتها وبيدك أمرها ، ولك القدرة عليها وعلى أهلها ..

« أنت ولىي فى الدنيا والآخرة » .. فأنت الناصر والمعين ..

رب تلك نعمتك . وهذه قدرتك .

رب إنى لا أسألك سلطانا ولا صحة ولامالا . رب إنى أسألك ماهو أبقى وأغنى . « توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » ..

وهكذا يتوارى الجاه والسلطان ، وتتوارى فرحة اللقاء واجتماع الأهل ، ولمة الإخوان . ويبدوا المشهد الأخير مشهد إنسان فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه ، وأن يلحقه بالصالحين بين يديه .

إنه النجاح المطلق فى الامتحان الأخير ..

« ذٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ * وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ * وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا ، وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ * أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ ٱللهِ ، أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ؟ .

« قُلْ : هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى ٱللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ، وَسُبْحَانَ ٱللهِ ، وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ .

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَى . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؟ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ * حَتَّى إِذَا ٱسْتَيْأَسَ ٱلرُّسُلُ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ، فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ .

« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ، وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » ..

انتهت قصة يوسف لتبدأ التعقيبات عليها . تلك التعقيبات التى أشرنا إليها فى مقدمة الحديث عن السورة . وتبدأ معها اللفتات المتنوعة واللمسات المتعددة ، والجولات الموحية فى صفحة الكون وفى أغوار النفس وفى آثار الغابرين ، وفى الغيب المجهول وراء الحاضر المعلوم . فنأخذ فى استعراضها حسب ترتيبها فى السياق . وهو ترتيب ذو هدف معلوم .

* * *

تلك القصة لم تكن متداولة بين القوم الذين نشأ فيهم محمد — صلى الله عليه وسلم — ثم بعث إليهم . وفيها أسرار لم يعلمها إلا الذين لامسوها من أشخاص القصة ، وقد غبرت بهم القرون . وقد سبق فى مطلع السورة قول الله تعالى لنبيه : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين » .. فهاهو ذا يعقب على القصة بعد تمامها ، ويعطف ختامها على مطلعها :

«ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون »..

ذلك القصص الذى مضى فى السياق من الغيب الذى لا تعلمه ؛ ولكننا نوحيه إليك ، وآية وحيه أنه كان غيبا بالقياس إليك . وما كنت معهم إذ اجتمعوا واتفق رأيهم ، وهم يمكرون . ذلك المكر الذى تحدثت عنه القصة فى مواضعه . وهم يمكرون بيوسف ، وهم يمكرون بأبيهم ، وهم يدبرون أمرهم بعد أخذ أخيه وقد خلصوا نجيا وهو من المكر بمعنى التدبير . وكذلك ما كان هناك من مكر بيوسف من ناحية النسوة ومن ناحية رجال الحاشية وهم يودعونه السجن . . كل أولئك مكر ما كنت حاضره لتحكى عنه إنما هو الوحى . الذى سيقت السورة لتثبته من بين ماتثبت من قضايا اعتقادية وأخلاقية ، وهى متناثرة فى مشاهد القصة الكثيرة .

* * *

ولقد كان من مقتضى ثبوت الوحى ، وإيحاء القصص ، واللفتات واللمسات التى تحرك القلوب أن يؤمن الناس بهذا القرآن ، وهم يشهدون الرسول ، ويعرفون أحواله ، ثم يسمعون منه مايسمعون . ولكن أكثر الناس لا يؤمنون . وهم يمرون كذلك على الآيات

المبثوثة فى صفحة الوجود فلا ينتبهون اليها ، ولا يدركون مدلولها ، كالذى يلوى صفحة وجهه فلا يرى مايواجهه . فما الذى ينتظرونه ؟ وعذاب الله قد يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون :

« وما أكثر الناس ـ ولو حرصت ـ بمؤمنين . وما تسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكر للعالمين . وكأى من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون . أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ؟ » ..

ولقد كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حريصا على إيمان قومه ، رغبة فى إيصال الخير الذى جاء بهم إليهم ، ورحمة لهم مما ينتظر المشركين . ولكن الله العليم بقلوب البشر ، الخبير بطبائعهم وأحوالهم ينهى إليه أن حرصه على إيمانهم لن يسوق الكثرة المشركة إلى الإيمان ، لأنهم ـ كما قال فى هذه الآيات ـ يمرون على الآيات الكثيرة معرضين . فهذا الإعراض لا يؤهلهم للإيمان ، ولا يجعلهم ينتفعون بدلائله المبثوثة فى الآفاق .

وإنك لغنى عن إيمانهم فما تطلب منهم أجرا على الهداية ؛ وإن شأنهم فى الإعراض عنها لعجيب ، وهى تبذل لهم بلا أجر ولا مقابل « وما تسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكر للعالمين » تذكرهم بآيات الله ، وتوجه إليها أبصارهم وبصائرهم ، وهى مبذولة للعالمين ، لا احتكار فيها لأمة ولا جنس ولا قبيلة ، ولا ثمن لها يعجز عنه أحد ، فيمتاز الأغنياء على الفقراء ، ولا شرط لها يعجز عنه أحد فيمتاز القادرون على العاجزين إنما هى ذكرى للعالمين . ومائدة عامة شاملة معروضة لمن يريد أن يتذوق طعم الإيمان . .

« وكأى من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » . .

والآيات الدالة على الله وقدرته ووحدانيته كثيرة مبثوثة فى تضاعيف الكون ، معروضة للأبصار والبصائر . فى السماوات وفى الأرض . يمرون عليها صباح مساء ، آناء الليل وأطراف النهار . وهى ناطقة تكاد تدعو الناس اليها . بارزة تواجه العيون والمشاعر . موحية تخايل القلوب والعقول. ولكنهم لا يرونها ولا يسمعون دعاءها ولا يحسون إيقاعها العميق .

وإن لحظة تأمل فى مطلع الشمس ومغيبها . لحظة تأمل فى الظل الممدود ينقص بلطف أو يزيد . لحظة تأمل فى الخضم الزاخر ، والعين الفوارة ، والنبع الروى. لحظة تأمل فى النبتة النامية

والبرعم الناعم والزهرة المتفتحة والحصيد الهشيم . لحظة تأمل فى الطائر السابح فى الفضاء والسمك السابح فى الماء ، والدود السارب والنمل الدائب ، وسائر الحشود والأمم من الحيوان والحشرات والهوام .. لحظة تأمل فى صبح أو مساء ، فى هدأة الليل أو فى زحمة النهار .. لحظة واحدة يتسمع فيها القلب البشرى إلى إيقاعات هذا الوجود العجيب إن لحظة واحدة لكافية لارتعاش هـذا القلب بقشعريرة الإدراك الرهيب ، والتأثر المستجيب . ولكنهم « يمرون عليها وهم عنها معرضون » .. لذلك لا يؤمن الأكثرون !

وحتى الذين يؤمنون ، كثير منهم يتدسس الشرك ـ فى صورة من صوره ـ إلى قلوبهم . فالإيمان الخالص يحتاج إلى يقظة دائمة تنفى عن القلب أولا بأول كل خالجة شيطانية ، وكل اعتبار من اعتبارات هـذه الأرض فى كل حركة وكل تصرف ، لتكون كلها لله ، خالصة له دون سواه :

« وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » ..

مشركون قيمة من قيم هـذه الأرض فى تقريرهم للأحداث والأشياء والأشخاص . مشركون سببا من الأسباب مع قدرة الله فى النفع أو الضر سواء . مشركون فى الخوف من قوة غير قوة الله لحاكم أو ظالم أو ذى جاه . مشركون فى رجاء يتعلق بغير الله من بنى الإنسان . مشركون فى تضحية يشوبها التطلع إلى تقدير الناس . مشركون فى جهاد لتحقيق نفع أو دفع ضر ولكن لغير الله . مشركون فى عبادة يلحظ فيها وجه مع وجه الله .. لذلك يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل »(١) ،

وفى الأحاديث نماذج من هذا الشرك الخفى :

روى الترمذى ـ وحسنه ـ من رواية ابن عمر : « من حلف بغير الله فقد أشرك » .

وروى أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » .

---

(١) رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى ـ بإسناده ـ عن معقل بن يسار . قال : شهدت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو قال : حدثنى أبو بكر الصديق عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وفى مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من علق تميمة فقد أشرك » .

وعن أبى هريرة ـ بإسناده ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يقول « الله أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشريكه » .

وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد بن أبى فضالة قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادى مناد : من كان أشرك فى عمل عمله لله ، فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » .

وروى الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن محمود بن لبيد أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله؟ قال : « الرياء . يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جاء الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء » ؟ .

فهذا هو الشرك الخفى الذى يحتاج إلى اليقظة الدائمة للتحرز منه ليخلص الإيمان . والكثيرون لا يكلفون نفوسهم هذه اليقظة ، ومن ثم يقول الله : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » . فتنطبق على من كان يواجههم رسول الله فى الجزيرة ، وتشمل غيرهم على تتابع الزمان وتغير المكان . فالإنسان هو الإنسان . .

وبعد فماذا ينتظر أولئك المعرضون عن آيات الله المعروضة فى صفحات الوجود ، بعد إعراضهم عن آيات القرآن التى لا يسألون عليها أجرا ؟ .

ماذا ينتظرون ؟ .

« أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ، أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ؟ » . .

وهى لمسة قوية لمشاعرهم ، لإيقاظهم من غفلتهم ، وليحذروا عاقبة هذه الغفلة . فإن عذاب الله الذى لا يعلم موعده أحد ، قد يغشاهم اللحظة بغاشية تلفهم وتشملهم ، وربما تكون الساعة على الأبواب فيطرقهم اليوم الرهيب المخيف بغتة وهم لا يشعرون . . إن الغيب موصد الأبواب ، لا تمتد إليه عين ولا أذن ، ولا يدرى أحد ماذا سيكون اللحظة ، فكيف يأمن الغافلون ؟ .

* * *

وإذا كانت آيات هذا القرآن الذى يحمل دليل الرسالة ، وكانت الآيات التى يحفل بها الكون معروضة للأنظار . . إذا كانت هذه وتلك يمرون عليها وهم عنها معرضون ، ويشركون بالله شركا ظاهرا أو خفيا وهم الأكثرون . فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماض فى طريقه ومن اهتدى بهديه ، لا ينحرفون ولا يتأثرون بالمنحرفين :

« قل : هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله ! وما أنا من المشركين » .

« قل : هذه سبيلى » واحدة مستقيمة ، لا عوج فيها ولا شك ولا شبهة . « أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » فنحن على هدى من الله ونور . نعرف طريقنا جيدا ، ونسير فيها على بصر وإدراك ومعرفة ، لا نخبط ، ولا نتحسس ، ولا نحدس . فهو اليقين البصير المستنير . ننزه الله سبحانه عما لا يليق بذاته « وما أنا من المشركين » لا ظاهر الشرك ولا خافيه . . هذه طريقى فمن شاء فليتابع ، ومن لم يشأ فأنا سائر فى طريقى المستقيم .

* * *

ثم لفتة إلى سنة الله فى رسالاته ، وإلى بعض آيات الله فى الأرض من مصائر السابقين . . إن محمدا ليس بدعا من الرسل ، ورسالته ليست بدعا من الرسالات . وهذه عواقب الذين كذبوا من قبل ، آيات معروضة فى الأرض .

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى . أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون ؟ » .

إن النظر فى آثار الغابرين يهز القلوب حتى قلوب المتجبرين ولحظات الاسترجاع الخيالى لحركاتهم وسكناتهم وخلجاتهم ؛ وتصورهم أحياء يروحون فى هذه الأمكنة ويجيئون ، يخافون ويرجون ، يطمعون ويتطلعون . . ثم إذا هم ساكنون ، لا حس ولا حركة . آثارهم خاوية ، طواهم الفناء وانطوت معهم مشاعرهم وعوالمهم وأفكارهم وحركاتهم وسكناتهم ، ودنياهم الماثلة للعيان والمستكنة فى الضمائر والمشاعر . . إن هذه التأملات لتهز القلب البشرى هزا مهما يكن

جاسيا غافلا قاسيا . ومن ثم يأخذ القرآن بيد القوم ليوقفهم على مصارع الغابرين بين الحين والحين :

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى » . . لم يكونوا ملائكة ولا خلقا آخر . إنما كانوا بشرا مثلك من أهل الحاضرة ، لا من أهل البادية ليكونوا أرق حاشية وألين جانبا . . وأصبر على احتمال تكاليف الدعوة والهداية ، فرسالتك ماضية على سنة الله فى إرسال رجال من البشر نوحى إليهم . . « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ » . . فيدركوا أن مصيرهم كمصيرهم وأن سنة الله الواضحة الآثار فى آثار الغابرين ستنالهم ؟ وأن عاقبتهم فى هذه الأرض إلى ذهاب « ولدار الآخرة خير للذين اتقوا » خير من هذه الدار التى ليس فيها قرار« أفلا تعقلون ؟»فتتدبروا سنن الله فى الغابرين؟ أفلا تعقلون فتؤثرون المتاع الباقى على المتاع القصير ؟ .

ثم يصور ساعات الحرج القاسية فى حياة الرسل ، قبيل اللحظة الحاسمة التى يتحقق فيها وعد الله ، وتمضى فيها سنته التى لا تتخلف ولا تحيد :

« حتى إذا استيأس الرسل ، وظنوا أنهم قد كذبوا ، جاءهم نصرنا ، فنجى من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » .

إنها صورة رهيبة ، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق فى حياة الرسل ، وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود . وتمر الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا قليل ، وتكر الأعوام والباطل فى قوته . وكثرة أهله ، والمؤمنون فى عدتهم القليلة وقوتهم الضئيلة .

إنها ساعات حرجة ، والباطل ينتفش ويطغى ويبطش ويغدر . والرسل ينتظرون الوعد الذى لا يخلف وهم واثقون أنه لو كان وعداً من الله فلن يتخلف . فتهجس فى خواطرهم الهواجس . . تراهم كذبوا ؟ ترى نفوسهم كذبتهم ، فلم يكن وعدا من الله كما حسبوا ، إنما كانت أمانى من عند أنفسهم حسبوها وحيا ؟ .

إنها الزلزلة الرهيبة التى تهز ثقتهم بحقيقة أنفسهم ، وحقيقة اتصالاتهم ، وحقيقة تلقيهم . فهم لا يشكون لحظة فى صدق وعد الله . ولكنهم يشكون فى أنفسهم وهل كان ماتلقوه وعدا ووحيا أم هو كذب النفس وتوهمها ! وما يقف الرسول هذا الموقف إلا وقد بلغ الكرب والحرج والضيق فوق ما يطيقه بشر . وما قرأت هذه الآية والآية الأخرى : « أم حسبتم أن

تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ؟ . . . » ما قرأت هذه الآية أو تلك إلا وشعرت بقشعريرة من تصور الهول الذى يبلغ بالرسول هذا المبلغ ، ومن تصور الهول الكامن فى هذه الهواجس ، والكرب المزلزل الذى يرج نفس الرسول هذه الرجة ، وحالته النفسية فى مثل هذه اللحظات ، وما يحس به من ألم لا يطاق .

فى هذه اللحظة التى يستحكم فيها الكرب ، ويأخذ الضيق بمخانق الرسل ، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة فى هذه اللحظة يجىء النصر كاملا حاسما فاصلا :

« جاءهم نصرنا ، فنجى من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » . .

تلك سنة الله فى الدعوات . لا بد من الشدائد ، ولا بد من الكروب ، حتى لا تبقى بقية من جهد ولا بقية من طاقة . ثم يجىء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التى يتعلق بها الناس . يجىء والنصر من عند الله ، فينجو الذين يستحقون النجاة ، ينجون من الهلاك الذى يأخذ المكذبين ، وينجون من البطش والعسف الذى كان يسلطه عليهم التجبرون . ويحل بأس الله بالمجرمين ، مدمرا ماحقا لا يقفون له ، ولا يصده عنهم ولى ولا نصير .

ذلك كى لا يكون النصر رخيصا فتكون الدعوات هزلا . فلو كان النصر رخيصا لقام فى كل يوم دعى بدعوة ، لا تكلفه شيئا ، أو تكلفه القليل . ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثا ولا لعبا . فإنما هى قواعد للحياة البشرية ومناهج ، ينبغى صيانتها وحراستها من الأدعياء . والأدعياء لا يحتملون تكاليف الدعوة لذلك يشفقون أن يدعوها ، فإذا ادعوها عجزوا عن حملها وطرحوها ، وتبين الحق من الباطل على محك الشدائد التى لا يصمد لها إلا الواثقون الصادقون .

***

وفى قصة يوسف ألوان من الشدائد . فى الجب وفى بيت العزيز وفى السجن . وألوان من الاستيئاس من نصرة الناس . . ثم كانت العاقبة خيرا للذين اتقوا — كما هو وعد الله الصادق الذى لا يخيب — وقصة يوسف نموذج من قصص المرسلين . فيها عبرة لمن يعقل ، وفيها

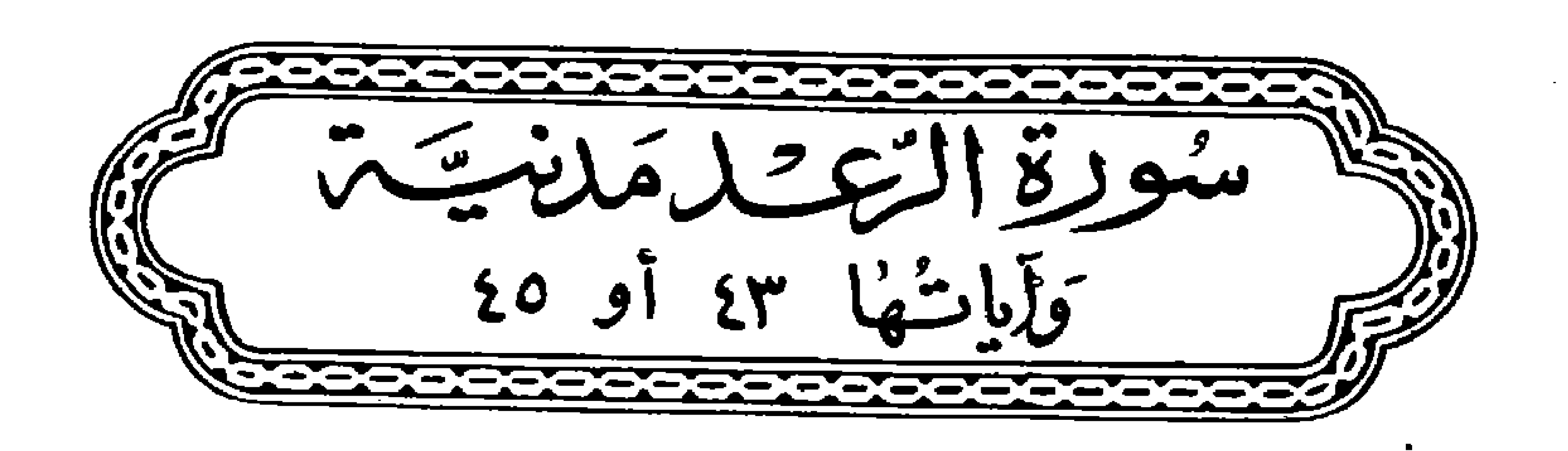
تصديق ما جاءت به الكتب المنزلة من قبل ، على غير صلة بين محمد وهذه الكتب . فما كان يمكن أن يكون ما جاء به حديثا مفترى . فالأكاذيب لا يصدق بعضها بعضا ولا تحقق هداية ، ولا يستروح فيها القلب المؤمن رائحة الرحمة :

« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ..

* * *

وهكذا يتوافق المطلع والختام فى السورة ، كما توافق المطلع والختام فى القصة . وتجىء التعقيبات فى أول القصة وآخرها ، وبين ثناياها ، متناسقة مع موضوع القصة ، وطريقة أدائها ، وعباراتها كذلك . فتحقق الهدف الدينى كاملا ، وتحقق السمات الفنية كاملة ، مع صدق الرواية ، ومطابقة الواقع فى الموضوع .

وقد بدأت القصة وانتهت فى سورة واحدة ، لأن طبيعتها تحتم هذا اللون من الأداء . فهى رؤيا تتحقق رويدا رويدا ، ويوما بعد يوم ، ومرحلة بعد مرحلة . فلا تتم العبرة بها — كما لا يتم التنسيق الفنى فيها — إلا بأن يتابع السامع والقارىء خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها . وإفراد حلقة واحدة منها فى موضع لا يحقق شيئا من هذا كله كما يحققه إفراد بعض الحلقات فى قصص الرسل الآخرين . كحلقة قصة سليمان مع بلقيس . أو حلقة قصة مولد مريم . أو حلقة قصة مولد عيسى . أو حلقة قصة نوح والطوفان ... الخ فهذه الحلقات تفى بالغرض منها دينيا وفنيا . أما قصة يوسف فتقتضى أن تتلى كلها متوالية حلقاتها ومشاهدها ، من بدئها إلى نهايتها . وصدق الله العظيم : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن . وإن كنت من قبله لمن الغافلين » ..



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« أٓلٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ، وَٱلَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .

« ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ، يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ، يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا ، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ، يُغْشِى ٱللَّيْلَ النَّهَارَ . إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ، وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ ، وَزَرْعٌ ، وَنَخِيلٌ ، صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ، يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ . إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .

« وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ! أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ ٱلْأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ ، وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

« وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ، وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَاتُ؛ وَإِنَّ رَبَّكَ

لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ! إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ .

« اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ، وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ — يَحْفَظُونَهُ — مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ؛ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ .

« هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ — خَوْفاً وَطَمَعاً — وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ . وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ؛ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ؛ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ * لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ ، وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، طَوْعاً وَكَرْهاً ، وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ .

« قُلْ : مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ قُلِ : اللَّهُ . قُلْ : أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرًّا ؟ قُلْ : هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ؟ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ؛ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ؟ ! قُلِ : اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ، فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِياً ؛ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ . كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ . فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ . كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ .

« لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَى ، وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ، لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ ٱلْحِسَابِ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ » . .

كثيرا ما أقف أمام النصوص القرآنية وقفة المتهيب أن أمسها بأسلوبى البشرى القاصر ؛ المتحرج أن أشوبها بتعبيرى البشرى الفانى !

وهذه السورة كلها ـ شأنها شأن سورة الأنعام من قبلها ـ من بين هذه النصوص التى لا أ كاد أجرؤ على مسها بتفسير أو إيضاح .

ولكن ماذا أصنع ونحن فى جيل لا بد أن يقدم له القرآن مع شىء من الإيضاح لبعض ألفاظه ولبعض تعبيراته ، مع التوجيه إلى مافيه من جمال وكمال .

إن إيقاع هـذا القرآن المباشر فى حسى محال أن أترجمه فى ألفاظى وتعبيراتى . ومن ثم أحس دائما بالفجوة الهائلة بين ماأستشعره منه وما أترجمه للناس فى هذه « الظلال » !

وإننى لأدرك الآن ـ بعمق ـ حقيقة الفارق بين جيلنا الذى نعيش فيه والجيل الذى تلقى مباشرة هذا القرآن . لقد كانوا يخاطبون بهذا القرآن مباشرة ؛ ويتلقون إيقاعه فى حسهم ، وصوره وظلاله ، وإيحاءاته وإيماءاته ، وينفعلون بها انفعالا مباشرا ، ويستجيبون لها استجابة مباشرة . ومن ثم كانوا يحققون فى حياة البشر القصيرة تلك الخوارق التى حققوها ، بالانقلاب المطلق الذى تم فى قلوبهم ومشاعرهم . وحياتهم ، ثم بالانقلاب الآخر الذى حققوه فى الحياة من حولهم ، وفى أقدار العالم كله يومذاك ، وفى خط سير التاريخ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد كانوا ينهلون مباشرة من معين هذا القرآن بلا وساطة . ويتأثرون بإيقاعه فى حسهم فماً لأذن . وينضجون بحرارته وإشعاعه وإيحائه ؛ ويتكيفون بعد ذلك وفق حقائقه وقيمه وتصوراته .

أما نحن اليوم فنتكيف وفق تصورات فلان وفلان عن الكون والحياة والقيم والأوضاع . وفلان وفلان من البشر القاصرين أبناء الفناء !

ثم ننظر نحن إلى ماحققوه فى حياتهم من خوارق فى ذات أنفسهم وفى الحياة من حولهم ، فنحاول تفسيرها وتعليلها بمنطقنا الذى يستمد معاييره من قيم وتصورات ومؤثرات غير قيمهم وتصوراتهم ومؤثراتهم . فنخطىء ولا شك فى تقدير البواعث وتعليل الدوافع وتفسير النتائج .. لأنهم هم خلق آخر من صنع هذا القرآن ..

وإنى لأهيب بقراء هذه الظلال ، ألا تكون هى هدفهم من الكتاب . إنما يقرءونها ليدنوا من القرآن ذاته . ثم ليتناولوه عند ذلك فى حقيقته ، ويطرحوا عنهم هذه الظلال .

* * *

وبعد فهذا استطراد اندفعت إليه وأمامى هذه السورة ــ سورة الرعد ــ وكأنما أقرؤها لأول مرة ، وقدقرأتها من قبل وسمعتها ما لا أحصيه من المرات . ولكن هذا القرآن يعطيك بمقدار ماتعطيه ؛ ويتفتح عليك فى كل مرة باشعاعات وإشراقات وإيحاءات وإيقاعات بقدر ماتفتح له نفسك ؛ ويبدو لك فى كل مرةجديدا كأنك تتلقاه اللحظة ، ولم تقرأه أو تسمعه أو تعالجه من قبل !

وهذه السورة من أعاجيب السور القرآنية التى تأخذ فى نفس واحد ، وإيقاع واحد[1] ، وجو واحد ، وعطر واحد من بدئها إلى نهايتها والتى تفعم النفس ، وتزحم الحس بالصور والظلال والمشاهد والخوالج . والتى تأخذ النفس من أقطارها . جميعا ؛ فإذا هى فى مهرجان

---

(١) الإيقاع الموسيقى فى القرآن يتألف من عناصر شتى : من مخارج الحروف فى الكلمة الواحدة ؛ ومن تناسق الإيقاعات بين كلمات الفقرة ؛ ومن اتجاهات المد فى الكلمات ، ثم من اتجاهات المد فى نهاية الفاصلة المطردة فى الآيات ومن حرف الفاصلة ذاته (وقد تكلمت عن هذا بتوسع فى كتاب التصوير الفنى) وجميع العناصر التى يتألف منها الإيقاع فى هذه السورة واحدة فيما عدا اتجاه المد وحرف الفاصلة فى القسم الأول منها حتى آية « قد الفاصلة وحرفها : « يؤمنون . توقنون . يتفكرون يعقلون خالدون» وبقية السورة : « العقاب . هاد . بمقدار . المتعال . بالنهار ... الخ »

من الصور والمشاعر والإيقاعات والإشراقات . والتى ترتاد بالقلب آفاقا وأكوانا وعوالم وأزمانا ، وهو مستيقظ ، مبصر ، مدرك ، شاعر بما يموج حوله من المشاهد والموحيات .

إنها ليست ألفاظا وعبارات ، إنما هى مطارق وإيقاعات : صورها . ظلالها . مشاهدها . موسيقاها . لمساتها الوجدانية التى تكمن وتتوزع هنا وهناك !

إن موضوعها الرئيسى كل موضوع السور المكية ــ كلها على وجه التقريب ــ : العقيدة . وقضاياها هى التوحيد والبعث والوحى .

ولكن هذا الموضوع الواحد ذا القضايا الواحدة ، لم يتكرر عرضه قط بطريقة واحدة فى كل تلك السور المكية وفى غيرها من السور المدنية . فهو فى كل مرة يعرض بطريقة جديدة ؛ وفى ضوء جديد ؛ ويتناول عرضه مؤثرات وموحيات ذات إيقاع جديد وإيحاء جديد !

إن هذه القضايا لا تعرض عرضا جدليا باردا يقال فى كلمات وينتهى كأية قضية ذهنية باردة . إنما تعرض وحولها إطار هو هذا الكون كله بكل مافيه من عجائب ؛ هى براهين هذه القضيا وآياتها فى الإدراك البشرى البصير المفتوح . وهذه العجائب لا تنفد ؛ ولا تبلى جدتها ، لأنها تتكشف كل يوم عن جديد يصل إليه الإدراك ، وما كشف منها من قبل يبدو جديدا فى ضوء الجديد الذى يكشف ! ومن ثم تبقى تلك القضايا حية فى مهرجان العجائب الكونية التى لا تنفد ولا تبلى جدتها !

وهذه السورة تطوف بالقلب البشرى فى مجالات وآفاق وآماد وأعماق ؛ وتعرض عليه الكون كله فى شتى مجالاته الأخاذة : فى السماوات المرفوعة بغير عمد . وفى الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . وفى الليل يغشاه النهار . وفى الأرض الممدودة وما فيها من رواس ثابتة وأنهار جارية ، وجنات وزرع ونخيل مختلف الأشكال والطعوم والألوان ، ينبت فى قطع من الأرض متجاورات ويسقى بماء واحد . وفى البرق يخيف ويطمع ، والرعد يسبح ويحمد ، والملائكة تخاف وتخشع ، والصواعق يصيب بها من يشاء ، والسحاب الثقال والمطر فى الوديان ، والزبد الذى يذهب جفاء ، ليبقى فى الأرض ماينفع الناس .

وهى تلاحق ذلك القلب أينما توجه : تلاحقه بعلم الله النافذ الكاشف الشامل ، يلم بالشارد والوارد ، والمستخفى والسارب ، ويتعقب كل حى ويحصى عليه الخواطر والخوالج .

والغيب المكنون الذى لا تدركه الظنون مكشوف لعلم الله وما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار .

إنها تقرب لمدارك البشر شيئا من حقيقة القوة الكبرى المحيطة بالكون ظاهره وخافيه ، جليله ودقيقه ، حاضره وغيبه . وهذا القدر الذى يمكن لمدارك البشر تصوره هائل مخيف ، ترجف له القلوب .

وذلك إلى الأمثال المصورة تتمثل فى مشاهد حية حافلة بالحركة والانفعال . إلى مشاهد القيامة ، وصور النعيم والعذاب ، وخلجات الأنفس فى هذا وذاك : إلى وقفات على مصارع الغابرين ، وتأملات فى سير الراحلين ، وفى سنة الله التى مشت عليهم فإذا هم داثرون . .

***

هذا عن موضوعات السورة وقضاياها ، وعن آفاقها الكونية وآمادها . . ووراءها خصائص الأداء الفنية العجيبة . فالإطار العام الذى تعرض فيه قضاياها هو الكون كما أسلفنا ومشاهده وعجائبه فى النفس وفى الآفاق . وهذا الإطار ذو جو خاص :

إنه جو المشاهد الطبيعية ، المتقابلة من سماء وأرض . وشمس وقمر . وليل ونهار . وشخوص وظلال . وجبال راسية وأنهار جارية . وزبد ذاهب وماء باق . وقطع من الأرض متجاورات مختلفات . ونخيل صنوان وغير صنوان . . ومن ثم تطرد هذه التقابلات فى كل المعانى وكل الحركات وكل المصائر فى السورة ، لتناسق التقابل المعنوى فى السورة مع التقابلات الحسية ، وتتسق فى الجو العام . . ومن ثم يتقابل الاستعلاء فى الاستواء على العرش مع تسخير الشمس والقمر . ويتقابل ما تغيض الأرحام مع ما تزداد . ويتقابل من أسرّ القول مع من جهر به . ومن هو مستخف بالليل مع من هو سارب بالنهار . ويتقابل الخوف مع الطمع تجاه البرق . ويتقابل تسبيح الرعد حمدا مع تسبيح الملائكة خوفا . وتتقابل دعوة الحق لله مع دعوة الباطل للشركاء . ويتقابل من يعلم مع من هو أعمى . ويتقابل الذين يفرحون من أهل الكتاب بالقرآن مع من ينكر بعضه . ويتقابل المحو مع الإثبات فى الكتاب . . وبالإجمال تتقابل المعانى ، وتتقابل الحركات ، وتتقابل الاتجاهات . . تنسيقا للجو العام فى الأداء ! .

وظاهرة أخرى من ظواهر التناسق فى جو الأداء . فلأنه جو الطبيعة من سماء وأرض وشمس وقمر ورعد وبرق وصواعق وأمطار ، وحياة وإنبات . يجيء الحديث عما تكنه الأرحام من حيوات ، ويجيء معها « وما تغيض الأرحام وما تزداد » ويتناسق غيض الأرحام وازديادها مع سيل الماء فى الوديان والإنبات ! وذلك من بدائع التنسيق الفنى فى القرآن[1] .

ذلك طرف من الأسباب التى من أجلها أقف أمام هذه السورة — كما وقفت من قبل كثيرا أمام غيرها — متهيبا أن أمسها بأسلوبى البشرى القاصر ، متحرجا أن أشوبها بتعبيرى البشرى الفانى . . ولكنها ضرورة الجيل . نستعين عليها الله . والله المستعان .

* * *

تبدأ السورة بقضية عامة من قضايا العقيدة : قضية الوحى بهذا الكتاب ، والحق الذى اشتمل عليه . وتلك هى قاعدة بقية القضايا من توحيد لله ، ومن إيمان بالبعث ، ومن عمل صالح فى الحياة . فكلها متفرعة عن الإيمان بأن الآمر بهذا هو الله ، وأن هذا القرآن وحى من عنده إلى رسوله :

« المر . تلك آيات الكتاب . والذى أنزل إليك من ربك الحق . ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » . .

ألف . لام . ميم . را . . « تلك آيات الكتاب » آيات هذا القرآن . أو تلك آيات على الكتاب تدل على الوحى به من عند الله . إذ كانت صياغته من مادة هذه الأحرف دلالة على أنه من وحى الله ، لا من عمل مخلوق كائنا من كان .

« والذى أنزل إليك من ربك الحق » . . جزما وقطعا . الحق الخالص الذى لا يتلبس بالباطل. والذى لا يحتمل الشك والتردد . وتلك الأحرف آيات على أنه الحق . فهى آيات على أنه من عند الله . ولن يكون ما عند الله إلا حقا لا ريب فيه .

---

(١) يراجع التناسق الفنى . فى كتاب التصوير الفنى .

« ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » . . لا يؤمنون على الإطلاق . لا بأنه موحى به ، ولا بالقضايا المترتبة على الإيمان بهذا الوحى من توحيد وبعث وعمل صالح فى الحياة .

* * *

هذا هو الافتتاح الذى يلخص موضوع السورة كله ، ويشير إلى جملة قضاياها . ومن ثم يبدأ فى استعراض آيات القدرة ، وعجائب الكون الدالة على قدرة الخالق وحكمته وتدبيره ، الناطقة بأن من مقتضيات هذه الحكمة أن يكون هناك وحى لتبصير الناس ؛ وأن يكون هناك بعث لحساب الناس . وأن من مقتضيات تلك القدرة أن تكون مستطيعة بعث الناس ورجعهم إلى الخالق الذى بدأهم وبدأ الكون كله قبلهم . وسخره لهم ليبلوهم فيما آتاهم .

وتبدأ الريشة المعجزة فى رسم المشاهد الكونية الضخمة . . لمسة فى السماوات ، ولمسة فى الأرضين . ولمسات فى مشاهد الأرض وكوامن الحياة . .

ثم التعجيب من قوم ينكرون البعث بعد هذه الآيات الضخام ، ويستعجلون عذاب الله ، ويطلبون آية غير هذه الآيات :

« الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون .

« وهو الذى مد الأرض ، وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون .

« وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون .

« وإن تعجب فعجب قولهم : أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ؟ أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال فى أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات ، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديد العقاب . ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ، إنما أنت منذر ولكل قوم هاد » .

والسماوات ـ أيا كان مدلولها وأيا كان ما يدركه الناس من لفظها فى شتى العصور ـ معروضة على الأنظار ، هائلة ـ ولا شك ـ حين يخلو الناس إلى تأملها لحظة . مطلقة لا تستند إلى شيء . مرفوعة « بغير عمد » مكشوفة « ترونها » . .

هذه هى اللمسة الأولى فى مجالى الكون الهائلة وهى بذاتها اللمسة الأولى للوجدان الإنسانى ، وهو يقف أمام هذا المشهد الهائل يتملاه ، ويدرك أنه ما من أحد يقدر على رفعها بلا عمد ـ أو حتى بعمد ـ إلا الله ؛ وقصارى ما يرفعه الناس بعمد أو بغير عمد تلك البنيان الصغيرة الهزيلة القابعة فى ركن ضيق من الأرض لا تتعداه . ثم يتحدث الناس عما فى تلك البنيان من عظمة ومن قدرة ومن إتقان ، غافلين عما يشملهم ويعلوهم من سماوات مرفوعة بغير عمد ؛ وعما وراءها من القدرة الحقة والعظمة الحقة ، والإتقان الذى لا يتطاول إليه خيال إنسان ! .

ومن هذا المنظور الهائل الذى يراه الناس ، إلى المغيب الهائل الذى تتقاصر دونه المدارك والأبصار : « ثم استوى على العرش » . .

فإن كان علو فهذا أعلى . وإن كانت عظمة فهذا أعظم . وهو الاستعلاء المطلق ، يرسمه فى صورة على طريقة القرآن فى تقريب الأمور المطلقة لمدارك البشر المحدودة .

وهى لمسة أخرى هائلة من لمسات الريشة المعجزة . لمسة فى العلو المطلق إلى جانب اللمسة الأولى فى العلو المنظور ، تتجاوران وتتسقان فى السياق . .

ومن الاستعلاء المطلق إلى التسخير . تسخير الشمس والقمر . تسخير العلو المنظور للناس على ما فيه من عظمة أخاذة ، أخذت بألبابهم فى اللمسة الأولى ، ثم إذا هى مسخرة بعد ذلك لله الخالق المتعال .

ونقف لحظة أمام التقابلات المتداخلة فى المشهد قبل أن نمضى معه إلى غايته . فإذا نحن أمام ارتفاع فى الفضاء المنظور يقابله ارتفاع فى الغيب المجهول . وإذا نحن أمام استعلاء يقابله التسخير . وإذا نحن أمام الشمس والقمر يتقابلان فى الجنس نجم وكوكب ، ويتقابلان فى الأوان ، بالليل والنهار . .

ثم نمضى مع السياق . . فمع الاستعلاء والتسخير الحكمة والتدبير : « كل يجرى لأجل

مسمى » .. وإلى حدود مرسومة ، ووفق ناموس مقدر . سواء فى جريانهما فى فلكيهما دورة سنوية ودورة يومية . أو جريانهما فى مداريهما لا يتعديانه ولا ينحرفان عنه . أو جريانهما إلى الأمد المقدر لهما قبل أن يحول هذا الكون المنظور .

وكذلك « يدبر الأمر » . . الأمر كله ، على هذا النحو من التدبير الذى يسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى . . والذى يمسك بالأفلاك الهائلة والأجرام السابحة فى الفضاء فيجريها لأجل لا تتعداه ، لا شك عظيم التدبير جليل التقدير .

ومن تدبيره الأمر أنه « يفصل الآيات » وينظمها وينسقها ، ويعرض كلا منها فى حينه ، ولعلته ، ولغايته « لعلكم بلقاء ربكم توقنون » حين ترون الآيات مفصلة منسقة ، ومن ورائها آيات الكون ، تلك التى أبدعتها يد الخالق أول مرة ؛ وصورت لكم آيات القرآن ما وراء إبداعها من تدبير وتقدير وإحكام ذلك كله يوحى بأن لا بد من عودة إلى الخالق بعد الحياة الدنيا ، لتقدير أعمال البشر ، ومجازاتهم عليها . فذلك من كمال التقدير الذى توحى به حكمة الخلق الأول عن حكمة وتدبير .

وبعد ذلك يهبط الخط التصويرى الهـــائل من السماء إلى الأرض فيرسم لوحتها العريضة الأولى :

« وهو الذى مد الأرض ، وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين . يغشى الليل النهار . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . .

والخطوط العريضة فى لوحة الأرض هى مد الأرض وبسطها أمام النظر وانفساحها على مداه . لا يهم ما يكون شكلها الكلى فى حقيقته . إنما هى مع هذا ممدودة مبسوطة فسيحة . هذه هى اللمسة الأولى فى اللوحة ثم يرسم خط الرواسى الثوابت من الجبال ، وخط الأنهار الجارية فى الأرض . فتتم الخطوط العريضة الأولى فى المشهد الأرضى ، متناسقة متقابلة .

ومما يناسب هذه الخطوط الكلية ما تحتويه الأرض من الكليات ، وما يلابس الحياة فيها من كليات كذلك . وتتمثل الأولى فيما تنبت الأرض : « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » . وتتمثل الثانية فى ظاهرتى الليل والنهار : « يغشى الليل النهار » .

والمشهد الأول يتضمن حقيقة علمية لم تعرف إلا قريبا . هى أن كل الأحياء وأولها النبات

تتألف من ذكر وأنثى ، حتى النباتات التى كان مظنونا أن ليس لها من جنسها ذكور ، تبين أنها تحمل فى ذاتها الزوج الآخر ، فتضم أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث مجتمعة فى زهرة ، أو متفرقة فى العود وهى حقيقة تتضامن مع المشهد فى إثارة الفكر إلى تدبر أسرار الخلق بعد على ظواهره .

والمشهد الثانى مشهد الليل والنهار متعاقبين ، هذا يغشى ذاك ، فى انتظام عجيب . هو ذاته مثار تأمل فى مشاهد الطبيعة ، فقدوم ليل وإدبار نهار أو إشراق فجر وانقشاع ليل . حادث تهون الألفة من وقعه فى الحس ، ولكنه فى ذاته عجب من العجب ، لمن ينفض عنه موات الألفة وخمودها ، ويتلقاه بحس الشاعر المتجدد ، الذى لم يجمده التكرار .. والنظام الدقيق الذى لا تتخلف معه دورة الفلك هو بذاته كذلك مثار تأمل فى ناموس هذا الكون ، وتفكير فى القدرة المبدعة التى تدبره وترعاه : « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . .

ونقف كذلك هنا وقفة قصيرة أمام التقابلات الفنية فى المشهد قبل أن نجاوزه إلى ماوراءه . . التقابلات بين الرواسى الثابتة والأنهار الجارية . وبين الزوج والزوج فى كل الثمرات . وبين الليل والنهار . ثم بين مشهد الأرض كله ومشهد السماء السابق . وهما متكاملان فى المشهد الكونى الكبير الذى يضمهما ويتألف منهما جميعا .

ثم تمضى الريشة المبدعة فى تخطيط وجه الأرض بخطوط جزئية أدق من الخطوط العريضة الأولى :

« وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ، ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » ..

وهذه المشاهد الأرضية فينا الكثيرون ، يمرون عليها فلا تثير فيهم حتى رغبة التطلع إليها ! إلا أن ترجع النفس إلى حيوية الفطرة والاتصال بالكون الذى هى قطعة منه ، انفصلت عنه لتتأمله ثم تندمج فيه . .

« وفى الأرض قطع متجاورات » متعددة الشيات ، وإلا ما تبين أنها « قطع » فلو كانت متماثلة لكانت قطعة . . منها الطيب الخصب ، ومنها السبخ النكد . ومنها المقفر الجدب ،

ومنها الصخر الصلد . وكل واحد من هذه وتلك أنواع وألوان ودرجات . ومنها العامر والغامر . ومنها المزروع الحي والمهمل الميت . ومنها الريان والعطشان . ومنها ومنها ومنها . . وهي كلها في الأرض متجاورات .

هذه اللمسة العريضة الأولى في التخطيط التفصيلي . . ثم تتبعها تفصيلات : « وجنات من أعناب » . « وزرع » . « ونخيل » تمثل ثلاثة أنواع من النبات ، الكرم المتسلق والنخل السامق . والزرع من بقول وأزهار وما أشبه . والغرض هو تلوين المنظر وملء فراغ اللوحة الطبيعية ، والتمثيل لمختلف أشكال النبات .

ذلك النخيل . صنوان وغير صنوان . منه ما هو عود واحد ، ومنه ما هو عودان أو أكثر في أصل واحد . . وكله « يسقى بماء واحد » والتربة واحدة ، ولكن الثمار مختلفات الطعوم :

« ونفضل بعضها على بعض في الأكل » فمن غير الخالق المدبر المريد يفعل ذلك ؟ .

من منا لم يذق الطعوم مختلفات في نبت البقعة الواحدة . فكم منا التفت هذه اللفتة التي وجه القرآن إليها العقول والقلوب ؟ إنه بمثل هذا يبقى القرآن جديدا أبدا ، لأنه يجدد أحاسيس البشر بالمناظر والمشاهد في الكون والنفس ؛ وهي لا تنفد ولا يستقصيها إنسان في عمره المحدود ، ولا تستقصيها البشريه في أجلها الموعود . « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » . .

ومرة ثالثة نقف أمام التقابلات الفنية في اللوحة بين القطع المتجاورات المختلفات . والنخل صنوان وغير صنوان والطعوم مختلفات . والزرع والنخيل والأعناب . . .

تلك الجولة الهائله في آفاق الكون الفسيحة ، يعود منها السياق ليعجب من قوم هذه الآيات كلها في الآفاق لا توقظ قلوبهم ، ولا تنبه عقولهم ، ولا يلوح لهم من ورائها تدبير المدبر ، وقدرة الخالق ، كأن عقولهم مغلولة ، وكأن قلوبهم مقيدة ، فلا تنطلق للتأمل في تلك الآيات :

« وإن تعجب فعجب قولهم : أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد ؟ أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال في أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . .

وإنه لعجيب يستحق التعجيب ، أن يسأل قوم بعد هذا العرض الهائل : « أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد » ؟ والذى خلق هذا الكون الضخم ودبره على هذا النحو ، قادر على إعادة الأناسى فى بعث جديد . إنما هو الكفر بربهم الذى خلقهم ودبر أمرهم . وإنما هى أغلال العقل والقلب . فالجزاء هو الأغلال فى الأعناق ، تنسيقا بين غل العقل وغل العنق ؛ والجزاء هى النار خالدين فيها . فقد عطلوا كل مقومات الإنسان التى من أجلها يكرمه الله ، وانتكسوا فى الدنيا فهم فى الآخرة يلاقون عاقبة الانتكاس حياة أدنى من حياتهم الدنيا ، التى عاشوها معطلى الفكر والشعور والإحساس .

هولاء القوم الذين يعجبون من أن يبعثهم الله خلقا جديدا . وعجبهم هذا هو العجب ! هؤلاء يستعجلونك أن تأتيهم بعذاب الله ، بدلا من أن يطلبوا هدايته ويرجوا رحمته : « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة » . وكما أنهم لا ينظرون فى آفاق الكون ، وآيات الله المبثوثة فى السماء والأرض ، فهم لا ينظرون إلى مصارع الغابرين الذين استعجلوا عذاب الله فأصابهم ؛ وتركهم مثلة يعتبر بها من بعدهم « وقد خلت من قبلهم المثلات » . فهم فى غفلة حتى عن مصائر أسلافهم من بنى البشر ، وقد كان فيها مثل لمن يعتبر . « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » فهو بعباده رحيم حتى وإن ظلموا فترة ، يفتح لهم باب المغفرة ليدخلوه عن طريق التوبة . ولكن يأخذ بعقابه الشديد من يصرون ويلجون، ولا يلجون من الباب المفتوح « وإن ربك لشديد العقاب » ..

والسياق يقدم هنا مغفرة الله على عقابه ، فى مقابل تعجل هؤلاء الغافلين للعذاب قبل الهداية . ليبدو الفارق الضخم الهائل بين الخير الذى يريده الله لهم ، والشر الذى يريدونه لأنفسهم . ومن ورائه يظهر انطماس البصيرة ، وعمى القلب ، والانتكاس الذى يستحق درك النار .

ثم يمضى السياق فى التعجيب من أمر القوم ، الذين لا يدركون كل تلك الآيات الكونية ، فيطلبون آية واحدة ينزلها الله على رسوله . آية واحدة والكون حولهم كله آيات :

« ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! إنما أنت منذر ، ولكل قوم هاد » . .

إنهم يطلبون خارقة . والخوارق ليست من عمل الرسول ولا اختصاصه . إنما يبعث بها الله معه ، حين يرى بحكمته أنها لازمة . « إنما أنت منذر » محذر ومبصر . شأنك شأن كل رسول قبلك ، فقد بعث الله الرسل للأقوام للهداية « ولكل قوم هاد » فأما الآيات الخارقة فأمرها إلى مدبر الكون والعباد .

***

وبذلك تنتهى الجولة الأولى فى الآفاق ، والتعقيبات عليها . ليبدأ السياق جولة جديدة فى واد آخر : فى الأنفس والمشاعر والأحياء :

« الله يعلم ما تحمل كل أنثى ، وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له فى معقبات من بين يديه ومن خلفه — يحفظونه — من أمر الله . إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه وال » . .

ويقف الحس مشدوها يرتعش تحت وقع هذه اللمسات العميقة فى التصوير وتحت إيقاع هذه الموسيقى العجيبة فى التعبير . يقف مشدوها وهو يقفو مسارب علم الله ومواقعه ؛ وهو يتبع الحمل المكنون فى الأرحام ، والسر المكنون فى الصدور ، والحركة الخفية فى جنح الليل ؛ وكل مستخف وكل سارب وكل هامس وكل جاهر وكل أولئك مكشوف تحت المجهر الكاشف ، يتتبعه شعاع من علم الله ، وتتعقبه حفظة تحصى خواطره ونواياه . . ألا إنها الرهبة الخاشعة التى لا تملك النفس معها إلا أن تلجأ إلى الله ، تطمئن فى حماه . . وإن المؤمن بالله ليعلم أن علم الله يشمل كل شىء . ولكن وقع هذه القضية الكلية فى الحس ، لا يقاس إلى وقع مفرداتها كما يعرض السياق بعضها فى هذا التصوير العجيب .

وأين أية قضية تجريدية ، وأية حقيقة كلية فى هذا المجال من قوله : « الله يعلم ما تحمل

كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شيء عنده بمقداره » : ؟ حين يذهب الخيال يتبع كل أنثى فى هـذا الـكون . . الترامى الأطراف .. كل أنثى .. كل أنثى فى الوبر والمدر ، فى البد والحضر ، فى البيوت والـكهوف والغابات . ويتصور علم الله مطلا على كل حمل فى أرحام هذه الإناث ، وعلى كل قطرة من دم تغيض أو تزداد فى تلك الأرحام !

وأين أية قضية تجريدية وأية حقيقة كلية فى هـذا المجال من قوله : « سواء منـكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » ؟ حين يذهب الخيال يتتبع كل هامس وكل جاهر ، وكل مستخف وكل سارب فى هـذا الـكون الهائل . ويتصور علم الله يتعقب كل فرد من بين يديه ومن خلفه ، ويقيد عليه كل شاردة وكل واردة آناء الليل وأطراف النهار !

إن اللمسات الأولى فى آفاق الـكون الهائل ليست بأضخم ولا أعمق من هذه اللمسات الأخيرة فى أغوار النفس والغيب ومجاهيل السرائر . وإن هذه لـكفء لتلك فى مجال التقابل والتناظر . .

ونستعرض شيئا من بدائع التعبير والتصوير فى تلك الآيات :

« الله يعلم ماتحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد . وكل شيء عنده بمقدار » .. فلما أن صور العلم بالغيض والزيادة فى مكنونات الأرحام ، عقب بأن كل شيء عنده بمقدار . والتناسق واضح بين كلة مقدار وبين النقص والزيادة . والقضية كلها ذات علاقة بإعادة الخلق فيما سبق من ناحية الموضوع . كما أنها من ناحية الشكل والصورة ذات علاقة بما سيأتى بعدها من الماء الذى تسيل به الأودية « بقدرها » فى السيولة والتقدير . . كما أن فى الغيض والزيادة تلك المقابلة المعهودة فى جو السورة على الإطلاق ..

« عالم الغيب والشهادة الـكبير المتعال » . . ولفظة « الـكبير » ولفظة « المتعال » كلتاهما تلقى ظلها فى الحس . ولـكن يصعب تصوير ذلك الظل بألفاظ أخرى . إنه مامن خلق حادث إلا وفيه نقص يصغره . وما يقال عن خلق . من خلق الله كبير ، أو أمر من الأمور كبير ، أو عمل من الأعمال كبير ، حتى يتضاءل بمجرد أن يذكر الله .. وكذلك «المتعال» .. ترانى قلت شيئا ؟ لا . ولا أى مفسر آخر للقرآن وقف أمام « الـكبير المتعال » !

« سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » . . والتقابل واضح فى العبارة . إنما تستوقفنا كلمة « سارب » وهى تكاد بظلها تعطى عكس معناها ، فظلها ظل خفاء أو قريب من الخفاء . والسارب الذاهب . فالحركة فيها هى المقصودة فى مقابل الاستخفاء . هذه النعومة فى جرس اللفظ وظله مقصودة هنا كى لا تخدش الجو . جو العلم الخفى اللطيف الذاهب وراء الحمل المكنون والسر الخافى والمستخفى بالليل والمعقبات التى لا تراها الأنظار . فاختار اللفظ الذى يؤدى معنى التقابل مع المستخفى ولكن فى لين ولطف وشبه خفاء !

«له معقبات من بين يديه ومن خلفه ــ يحفظونه ــ من أمر الله » .. والحفظة التى تتعقب كل إنسان ، وتحفظ كل شاردة وكل واردة وكل خاطرة وكل خالجة ، والتى هى من أمر الله . لا يتعرض لها السياق هنا بوصف ولا تعريف . أكثر من أنها « من أمر الله » فلا نتعرض نحن لها : ما هى ؟ وما صفاتها ؟ وكيف تتعقب ؟ وأين تكون ؟ ولا نذهب بجو الخفاء والرهبة والتعقب الذى يسبغه السياق . فذلك هو المقصود هنا ؛ وقد جاء التعبير بقدره ؛ ولم يجىء هكذا جزافا ؛ وكل من له ذوق باجواء التعبير يشفق من أن يشوه هذا الجو الغامض بالكشف والتفصيل !

« إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» .. فهو يتعقبهم بالحفظة من أمره لمراقبة مايحدثونه من تغيير بأنفسهم وأحوالهم فيرتب عليه الله تصرفه بهم . فإنه لا يغير نعمة أو بؤسى ، ولا يغير عزا أو ذلة ، ولا يغير مكانة أو مهانة . . . إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم ، فيغير الله مابهم وفق ماصارت إليه نفوسهم وأعمالهم . وإن كان الله يعلم ماسيكون منهم قبل أن يكون . ولكن مايقع عليهم يترتب على مايكون منهم ، ويجىء لاحقا له فى الزمان بالقياس إليهم .

وإنها لحقيقة تلقى على البشر تبعة ثقيلة ؛ فقد قضت مشيئة الله وجرت بها سنته . أن تترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر ؛ وأن تنفذ فيهم سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم . والنص صريح فى هذا لا يحتمل التأويل . وهو يحمل كذلك ــ إلى جانب التبعة ــ دليل التكريم لهذا المخلوق الذى اقتضته مشيئة الله ، أن يكون هو بعمله أداة التنفيذ لمشيئة الله فيه .

وبعد تقرير المبدأ يبرز السياق حالة تغيير الله مابقوم إلى السوء ؛ لأنهم ـ حسب المفهوم من الآية ـ غيروا مابأنفسهم إلى أسوء فأراد لهم اللهالسوء : « وإذا أراد الله بقوم سوءا فلامرد له ومالهم من دونهم من وال » . . يبرز السياق هـذا الجانب هنا دون الجانب الآخر لأنه فى معرض الذين يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة . وقد قدم لهم هناك المغفرة على العذاب ليبرز غفلتهم ، وهو هنا يبرز العاقبة السوأى وحدها لإنذارهم حيث لا يرد عذاب الله عنهم ـ إذا استحقوه بما فى أنفسهم ـ ولا يعصمهم منه وال يناصرهم ..

* * *

ثم يأخذ السياق فى جولة جديدة فى وادآخر ، موصول بذلك الوادى الذى كنا فيه . واد تجتمع فيه مناظر الطبيعة ومشاعر النفس ، متداخلة متناسقة فى الصورة والظل والإيقاع : وتخيم عليه الرهبة والضراعة والجهد والإشفاق . وتظل النفس فيه فى ترقب وحذر ، وفى تأثر وانفعال :

« هو الذى يريكم البرق . خوفا وطمعا . وينشىء السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته . ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال : له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال . ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعا وكرها ، وظلالهم ، بالغدو والآصال . قل : من رب السماوات والأرض ؟ قل : الله . قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟ قل : هل يستوى الأعمى والبصير . أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل: الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار » ..

والبرق والرعد والسحاب مشـاهد معروفة وكذلك الصواعق التى تصاحبها فى بعض الأحيان . وهى بذاتها مشاهد ذات أثر فى النفس ـ حتى اليوم وعند الذين يعرفون الكثير عن طبيعتها ـ والسياق يحشدها هنا ؛ ويضيف إليها الملائكة والظلال والتسبيح والسجود والخوف والطمع ، والدعاء الحق والدعاء الذى لا يستجاب . ويضم إليها هيئة أخرى :

هيئة ملهوف يتطلب الماء ، باسطا كفيه ليبلغه ، فاتحا فاه يتلقف قطرة منه . .

هذه كلها لا تتجمع فى النص اتفاقا أو جزافا . إنما تتجمع لتلقى كلها ظلالها على المشهد ، وتلفه فى جو من الرهبة والترقب ، والخوف والطمع ، والضراعة والارتجاف فى سياق تصوير سلطان الله المتفرد بالقهر والنفع والضر ، نفيا للشركاء الدعاة ، وإرهابا من عقبى الشرك بالله .

«هو الذى يريكم البرق . خوفا وطمعا .» .. هو الله الذى يريكم هذه الظاهرة الكونية ، فهى ناشئة من طبيعة الكون التى خلقها هو على هـذا النحو الخاص ، وجعل لها خصائصها وظواهرها . ومنها البرق الذى يريكم إياه وفق ناموسه فتخافونه لأنه بذاته يهز الأعصاب ، ولأنه قد يتحول إلى صاعقة ، ولأنه قد يكون نذيرا لسيل مدمر كما علمتكم تجاربكم . وتطمعون فى الخير من ورائه ، فقد يعقبه المطر المدرار المحيى للموات ، المجرى للأنهار .

« وينشىء السحاب الثقال » . . وهو كذلك الذى ينشىء السحـاب ــ والسحاب اسم جنس واحـدته سحابة ــ الثقال بالماء . فوفق ناموسه فى خلقة هذا الكون وتركيبه تتكون السحب ، وتهطل الأمطار . ولو لم يجعل خلقة الكون على هذا النحو ماتكونت سحب ولا هطلت أمطار ..

والرعد .. الظاهرة الثالثة لجو المطر والبرق والرعد .. هذا الصوت المقرقع المدوى.إنه أثر من آثار الناموس الكونى ، الذىصنعه الله ــ أياكانت طبيعته وأسبابه ــ فهو رجع صنع الله فى هذا الكون ، فهو حمد وتسبيح بالقدرة التى صاغت هذا النظام . كما أن كل مصنوع جميل متقن يسبح ويعلن عن حمد الصانع والثناء عليه بما يحمله من آثار صنعته من جمال وإتقان . .

إنما اختار التعبير أن يجعل صوت الرعد تسبيحا بالحمد اتباعا لمنهج التصوير القرآنى فى مثل هذا السياق ، وخلع سمات الحياة وحركاتها على مشاهد الكون الصامتة لتشارك فى المشهد بحركة من جنس حركة المشهد كله ــ كما فصلت هـذا فى كتاب التصوير الفنى فى القرآن ــ والمشهد هنا مشهد أحيـاء فى جو طبيعى . وفيه الملائـكة تسبح من خيفته ، وفيه دعاء لله ، ودعاء للشركاء . وفيه باسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه .. ففى وسط هـذا المشهد الداعى العابد المتحرك اشترك الرعد كـكائن حى بصوته فى التسبيح والدعاء ..

ثم يكمل جو الرهبة والابتهال والبرق والرعد والسحاب الثقال .. بالصواعق يرسلها فيصيب بها من يشاء . والصواعق ظاهرة طبيعية ناشئة من تركيب الكون على هذا النوال ؛ والله يصيب بها أحيانا من غيروا ما بأنفسهم واقتضت حكمته ألا يمهلهم ، لعلمه أن لا خير فى إمهالهم ، فاستحقوا الهلاك ..

والعجيب أنه فى هول البرق والرعد والصواعق ، وفى زحمة تسبيح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وزمجرة العواصف بغضبه . . فى هذا الهول ترتفع أصوات بشرية بالجدل فى الله صاحب كل هذه القوى وباعث كل هذه الأصوات التى ترتفع على كل جدال وكل محال : « وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال » !

وهكذا تضيع أصواتهم الضعيفة فى غمرة هذا الهول المتجاوب بالدعاء والابتهال والرعد والقرقعة والصواعق ، الناطقة كلها بوجود الله ـ الذى يجادلون فيه ـ وبوحدانيته واتجاه التسبيح والحمد إليه وحده من أضخم مجال الكون الهائل ، ومن الملائكة الذين يسبحون (من خيفته فى هذا المجال) فأين من هذا كله أصوات الضعاف من البشر وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال ؟ !

وهم يجادلون فى الله وينسبون إليه شركاء يدعونهم معه . ودعوة الله هى وحدها الحق ؟ وما عداها باطل ذاهب ، لا ينال صاحبه منه إلا العناء :

« له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء ، إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » . .

والمشهد هنا ناطق متحرك جاهد لاهف . . فدعوة واحدة هى الحق ، وهى التى تحق ، وهى التى تستجاب . إنها دعوة الله والتوجه إليه والاعتماد عليه وطلب عونه ورحمته وهداه . وما عداها باطل وما عداها ضائع وما عداها هباء . . ألا ترون حال الداعين لغيره من الشركاء ؟ انظروا هذا واحد منهم . ملهوف ظمآن يمد ذراعيه ويبسط كفيه . وفمه مفتوح يلهث بالدعاء . يطلب الماء ليبلغ فاه فلا يبلغه . وما هو ببالغه . بعد الجهد واللهفة والعناء . وكذلك دعاء الكافرين بالله الواحد حين يدعون الشركاء : « وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » .

وفى أى جو لا يبلغ هذا الداعى اللاهف اللاهث قطرة من ماء ؟ فى جو البرق والرعد والسحاب الثقال ، التى تجرى هناك بأمر الله الواحد القهار !

وفى الوقت الذى يتخذ هؤلاء الخائبون آلهة من دون الله ، ويتوجهون إليهم بالرجاء والدعاء ، إذا كل من فى الكون يعنو لله . وكلهم محكومون بإرادته ، خاضعون لسنته ، مسيرون وفق ناموسه . المؤمن منهم يخضع طاعة وإيمانا، وغير المؤمن يخضع أخذا وإرغاما ، فما يملك أحد أن يخرج على إرادة الله ، ولا أن يعيش خارج ناموسه الذى سنه للحياة :

« ولله يسجد من فى السماوات والأرض طوعا وكرها ، وظلالهم ، بالغدو والآصال » ..

ولأن الجو جو عبادة ودعاء ، فإن السياق يعبر عن الخضوع لمشيئة الله بالسجود وهو أقصى رمز للعبودية ، ثم يضم إلى شخوص من فى السماوات والأرض . ظلالهم كذلك . ظلالهم بالغدو فى الصباح ، وبالآصال عند انكسار الأشعة وامتداد الظلال . يضم هذه الظلال إلى الشخوص فى السجود والخضوع والامتثال . وهى فى ذاتها حقيقة فالظلال تبع للشخوص . ثم تلقى هذه الحقيقة ظلها على المشهد ، فإذا هو عجب . وإذا السجود مزدوج : شخوص وظلال ! وإذا الكون كله بما فيه من شخوص وظلال جاثية خاضعة عن طريق الإيمان أو غير الإيمان سواء . كلها تسجد لله . . وأولئك الخائبون يدعون آلهة من دون الله ! .

وفى جو هذا المشهد العجيب يتوجه إليهم بالأسئلة التهكمية . فما يجدر بالمشرك بالله فى مثل هذا الجو إلا التهكم ، وما يستحق إلا السخرية والاستهزاء :

« قل : من رب السماوات والأرض ؟ قل : الله . قل : أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟ قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل : الله خالق كل شىء ، وهو الواحد القهار » . .

سلهم — وكل من فى السماوات والأرض مأخوذ بقدرة الله وإرادته — رضى أم كره — : « من رب السماوات والأرض ؟ » وهو سؤال لا ليجيبوا عليه ، فقد أجاب السياق من قبل . إنما ليسمعوا الجواب ملفوظا وقد رأوه مشهودا : « قل : الله » ثم سلهم : « أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟ » . سلهم للاستنكار فهم بالفعل قد اتخذوا

أولئك الأولياء . سلهم والقضية واضحة ، والفرق بين الحق والباطل واضح : وضوح الفارق بين الأعمى والبصير ، وبين الظلمات والنور . وفى ذكر الأعمى والبصير إشارة إليهم وإلى المؤمنين ؛ فالعمى وحده هو الذى يصدهم عن رؤية الحق الواضح الجاهر الذى يحس بأثره كل من السماوات والأرض . وفى ذكر الظلمات والنور إشارة إلى حالهم وحال المؤمنين ، فالظلمات التى تحجب الرؤية هى التى تلفهم وتكفهم عن الإدراك للحق المبين .

أم ترى هؤلاء الشركاء الذين اتخذوهم من دون الله ، خلقوا مخلوقات كالتى خلقها الله . فتشابهت على القوم هذه المخلوقات وتلك ، فلم يدروا أيها من خلق الله وأيها من خلق الشركاء ؟ فهم معذورون إذن إن كان الأمر كذلك ، فى اتخاذ الشركاء ، فلهم من صفات الله تلك القدرة على الخلق ، التى بها يستحق المعبود العبادة ؛ وبدونها لا تقوم شبهة فى عدم استحقاقه ! .

وهو التهكم المر على القوم يرون كل شىء من خلق الله ، ويرون هذه الآلهة المدعاة لم تخلق شيئا وما هى بخالقة شيئا ، إنما هى مخلوقة . وبعد هذا كله يعبدونها فى غير شبهة . وذلك أسخف وأحط ما تصل العقول إلى دركه من التفكير . .

والتعقيب على هذا التهكم اللاذع ، حيث لا معارضة ولا جدال ، بعد هذا السؤال : « قل : الله خالق كل شىء . وهو الواحد القهار » . . فهى الوحدانية فى الخلق ، وهى الوحدانية فى القهر — أقصى درجات السلطان — وهكذا تحاط قضية الشركاء فى مطلعها بسجود من فى السماوات والأرض وظلالهم طوعا وكرها لله ؛ وفى ختامها بالقهر الذى يخضع له كل شىء فى الأرض أو فى السماء . . وقد سبقته من قبل بروق ورعود وصواعق وتسبيح وتحميد عن خوف أو طمع . . فأين القلب الذى يصمد لهذا الهول ، إلا أن يكون أعمى مطموسا يعيش فى الظلمات ، حتى يأخذه الهلاك ؟ ! .

وقبل أن نغادر هذا الوادى نشير إلى التقابلات الملحوظة فى طريقة الأداء . بين « خوفا وطمعا » وبين البرق الخاطف والسحاب الثقال — والثقال هنا بعد إشارتها إلى الماء تشارك فى صفة التقابل مع البرق الخفيف الخاطف — وبين تسبيح الرعد بحمده وتسبيح الملائكة من خيفته . وبين دعوة الحق ودعوة الجهد الضائع . وبين السماوات والأرض ، وسجود من فيهن طوعا وكرها . وبين الشخوص والظلال . وبين الغدو والآصال . وبين الأعمى والبصير . وبين

الظلمات والنور . وبين الخالق القاهر والشركاء الذين لا يخلقون شيئا ، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا . . . وهكذا يمضى السياق على نهجه فى دقة ملحوظة وتنسيق عجيب .

* * *

ثم نمضى مع السياق . يضرب مثلا للحق والباطل . للدعوة الباقية والدعوة الذاهبة مع الريح . للخير الهادىء والشر المتنفج . والمثل المضروب هنا مظهر لقوة الله الواحد القهار . ولتدبير الخالق المدبر المقدر للأشياء . وهو من جنس المشاهد الطبيعية التى يمضى فى جوها السياق :

« أنزل من السماء ماء ، فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبدا رابيا . ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله . كذلك يضرب الله الحق والباطل . فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض . كذلك يضرب الله الأمثال » . .

وإنزال الماء من السماء حتى تسيل به الوديان يتناسق مع جو البرق والرعد والسحاب الثقال فى المشهد السابق ؛ ويؤلف جانبا من المشهد الكونى العام ، الذى تجرى فى جوه قضايا السورة وموضوعاتها . وهو كذلك يشهد بقدرة الواحد القهار . . وأن تسيل هذه الأودية بقدرها . كل بحسبه . وكل بمقدار طاقته ومقدار حاجته يشهد بتدبير الخالق وتقديره لكل شىء . . وهى إحدى القضايا التى تعالجها السورة . . وليس هذا أو ذلك بعد إلا إطارا للمثل الذى يريد الله ليضربه للناس من مشهود حياتهم الذى يمرون عليه دون انتباه .

إن المـاء لينزل من السماء فتسيل به الأودية ، وهو يلم فى طريقه غثاء ، فيطفو على وجهه فى صورة الزبد حتى ليحجب الزبد المـاء فى بعض الأحيان . هذا الزبد نافش راب منتفخ . . ولكنه بعد غثاء . والماء من تحته سارب ساكن هادىء .. ولكنه هو الماء الذى يحمل الخير والحياة . . كذلك يقع فى المعادن والفلزات التى تذاب لتصاغ منها حلية كالذهب والفضة ، أو آنية أو آلة نافعة للحياة كالحديد والرصاص فإن الخبث يطفو وقد يحجب المعدن الأصيل . ولكنه بعد خبث يذهب ويبقى المعدن فى نقاء . .

ذلك مثل الحق والباطل فى هذه الحياة . فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابيا طافيا . ولكنه بعد زبد أو خبث ، ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحا لا حقيقة له ولا تماسك فيه . والحق يظل هادئا ساكنا . وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات . ولكنه

هو الباقى فى الأرض كالماء المحيي والمعدن الصريح ، ينفع الناس . « كذلك يضرب الله الأمثال » وكذلك يقرر مصائر الدعوات ، ومصائر الاعتقادات . ومصائر الأعمال والأقوال . وهو الله الواحد القهار المدبر للكون والحياة ، العليم بالظاهر والباطن ، والحق والباطل والباقى والزائل .

فمن استجاب لله فله الحسنى . والذين لم يستجيبوا له يلاقون من الهول ما يود أحدهم لو ملك ما فى الأرض ومثله معه أن يفتدى به . وما هو بمفتد ، إنما هو الحساب الذى يسوء ، وإنما هى جهنم لهم مهاد . وبالسوء المهاد :

« للذين استجابوا لربهم الحسنى ، والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به ، أولئك لهم سوء الحساب ، ومأواهم جهنم . وبئس المهاد » . .

ويتقابل الذين يستجيبون مع الذين لا يستجيبون . وتتقابل الحسنى مع سوء العذاب . ومع جهنم وبئس المهاد . على منهج السورة كلها وطريقتها المطردة فى الآداء .

« أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو ٱلْأَلْبَابِ * ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللهِ وَلَا يَنْقُضُونَ ٱلْمِيثَاقَ * وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ ٱللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، وَيَخَافُونَ سُوءَ ٱلْحِسَابِ * وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ . . أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَٱلْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ * وَٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ . . أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ ٱلدَّارِ * ٱللهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ، وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ .

« وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا : لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ! قُلْ : إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ ٱللَّهِ . أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ * ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ * كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ؛ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ . قُلْ : هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْهِ مَتَابِ * وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ ، أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ ، أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ . بَلْ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ؛ أَفَلَمْ يَيْأَسِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ؛ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ، أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ . إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ * وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ . فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ؟

« أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ؟ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ . قُلْ : سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ ؟ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ ٱلْقَوْلِ ؟ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ، وَصُدُّوا عَنِ ٱلسَّبِيلِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * لَهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ ، وَمَا لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ وَاقٍ * مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ . أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا . تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا ، وَعُقْبَى ٱلْكَافِرِينَ ٱلنَّارُ .

« وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ؛ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ . قُلْ : إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ، إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ * وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ؛ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ .

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ؛ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ

أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ * وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ .

« أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ؟ وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ، يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ، وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ .

« وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَسْتَ مُرْسَلًا . قُلْ : كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » . .

بعد المشاهد الهائلة فى آفاق الكون وفى أعماق الغيب ، وفى أغوار النفس التى استعرضها شطر السورة الأول ، يأخذ الشطر الثانى فى لمسات وجدانية وعقلية ، وتصويرية دقيقة رفيقة ، حول قضية الوحى والرسالة ، وقضية التوحيد والشركاء ، ومسألة طلب الآيات واستعجال تأويل الوعيد .. وهى جولة جديدة حول تلك القضايا فى السورة .

وتبدأ هذه الجولة بلمسة فى طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر ، فالأول علم والثانى عمى . وفى طبيعة المؤمنين وطبيعة الكافرين والصفات المميزة لهؤلاء وهؤلاء . يتلوها مشهدمن مشاهد القيامة ،وما فيها من نعيم للأولين ومن عذاب للآخرين . فلمسة فى بسط الرزق وتقديره وردهما إلى الله . فجولة مع القلوب المؤمنة المطمئنة بذكر الله . فوصف لهذا القرآن الذى يكاد يسير الجبال وتقطع به الأرض ويكلم به الموتى . فلمسة بما يصيب الكفار من قوارع تنزل بهم أوتحل قريبا من دارهم . فجدل تهكمى حول الآلهة المدعاة . فلمسة من مصارع الغابرين ونقص أطراف الأرض منهم حينا بعد حين . يختم هذا كله بتهديد الذين يكذبون برسالة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بتركهم للمصير المعلوم !

من ذلك نرى أن الإيقاعات والمطارق المتوالية فى شطر السورة الأول ، تحضر المشاعر

وتهيئها لمواجهة القضايا والمسائل فى شطرها الثانى وهى على استعداد وتفتح لتلقيها ؛ وأن شطرى السورة متكاملان ؛ وكل منهما يوقع على الحس طرقاته وإيحاءته لهدف واحد وقضية واحدة .

* * *

والقضية الأولى هى قضية الوحى . وقد أثيرت فى صدر السورة . وهى تثار هنا مرة أخرى على نسق جديد ..

« أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولو الألباب » ..

إن المقابل لمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك هو الحق ليس هو من لا يعلم هذا ، إنما المقابل هو الأعمى ! وهو أسلوب عجيب فى لمس القلوب وتجسيم الفروق . وهو الحق فى الوقت ذاته لا مبالغة ولا زيادة ولا تحريف . فالعمى وحده هو الذى ينشىء الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التى لا تخفى إلا على أعمى . والناس إزاء هذه الحقيقة الكبيرة صنفان : مبصرون فهم يعلمون ، وعمى فهم لا يعلمون ! والعمى عمى البصيرة ، وانطماس المدارك ، واستغلاق القلوب ، وانطفاء قبس المعرفة فى الأرواح ، وانفصالها عن مصدر الإشعاع .. « إنما يتذكر أولو الألباب » الذين لهم عقول وقلوب مدركة تذكر بالحق فتتذكر ، وتنبه إلى دلائله فتتفكر .

وهذه صفات أولى الألباب هؤلاء :

« الذين يوفون بعهد الله ، ولا ينقضون الميثاق » .. وعهد الله مطلق يشمل كل عهد ، وميثاق الله مطلق يشمل كل ميثاق . والعهد الأكبر الذى تقوم عليه العهود كلها هو عهد الإيمان ؛ والميثاق الأكبر الذى تتجمع عليه المواثيق كلها هو ميثاق الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان .

وعهد الإيمان قديم وجديد . قديم مع الفطرة البشرية المتصلة بناموس الوجود كله ؛

المدركة إدراكا مباشرا لوحدة الإرادة التى صدر عنها الوجود، ووحدة الخالق صاحب الإرادة، وأنه وحده المعبود. وهو الميثاق المأخوذ على الذرية فى ظهور بنى آدم فيما ارتضيناه لها من تفسير.. ثم هو جديد مع الرسل الذين بعثهم الله لا لينشئوا عهد الإيمان ولكن ليجددوه ويذكروا به ويفصلوه، ويبينوا مقتضياته من العمل الصالح والسلوك القويم، والتوجه به إلى الله وحده صاحب الميثاق القديم..

ثم تترتب على العهد الإلهى والميثاق الربانى كل العهود والمواثيق مع البشر. سواء مع الرسول أو مع الناس. ذوى قرابة أو أجانب. أفرادا أم جماعات. فالذى يرعى العهد الأول يرعى سائر العهود، لأن رعايتها فريضة؛ والذى ينهض بتكاليف الميثاق الأول يؤدى كل ماهو مطلوب منه للناس، لأن هذا داخل فى تكاليف الميثاق.

فهى القاعدة الضخمة الأولى التى يقوم عليها بنيان الحياة كله. يقررها فى كلمات.

« والذين يصلون ماأمر الله به أن يوصل، ويخشون ربهم، ويخافون سوء الحساب » ..

هكذا فى إجمال. فكل ماأمر الله به أن يوصل يصلونه. أى إنها الطاعة الكاملة والاستقامة الواصلة والسير على السنة ووفق الناموس بلا انحراف ولا التواء. لهذا ترك الأمر مجملا ولم يفصل مفردات ما أمر الله به أن يوصل، لأن هذا التفصيل يطول، وهو غير مقصود، إنما المقصود هو تصوير الاستقامة المطلقة التى لا تلتوى والطاعة المطلقة التى لا تتفلت، والصلة المطلقة التى لا تنقطع.. ويلمح عجز الآية إلى الشعور المصاحب فى نفوسهم لهذه الطاعة الكاملة: « ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » فهى خشية الله ومخافة العقاب الذى يسوء فى يوم لقائه الرهيب. وهم أولو الألباب الذين يتدبرون الحساب قبل يوم الحساب.

« والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم » .. والصبر ألوان. وللصبر مقتضيات. صبر على تكاليف الميثاق. من عمل وجهاد ودعوة واجتهاد... الخ وصبر على النعماء والبأساء. وقل من يصبر على النعمة فلا يبطر ولا يكفر. وصبر على حماقات الناس وجهالاتهم وهى تضيق الصدور.. وصبر وصبر كله ابتغاء وجه ربهم، لا تحرجا من أن يقول الناس: جزعوا. ولا تجملا ليقول الناس: صبروا. ولا رجاء فى نفع من وراء الصبر. ولا دفعا لضر يأتى به الجزع.

ولا لهدف واحـد غير ابتغاء وجـه الله ، والصبر على نعمته وبلواه . صبر التسليم لقضائه والاستسلام لمشيئته والرضى والاقتناع ..

« وأقاموا الصلاة » .. وهى داخلة فى الوفاء بعهدالله وميثاقه ، ولـكنه يبرزهالأنها الركن الأول لهـذا الوفاء ، ولأنها مظهر التوجه الخالص الـكامل لله ، ولأنها الصلة الظاهرة بين العبد والرب ، الخالصة له ليس فيها من حركة ولا كلمة لسواه .

« وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية » .. وهى داخلة فى وصل ماأمر الله بهأن يوصل،وفى الوفاء بتـكاليف الميثاق . ولـكنه يبرزها لأنها الصلة بين عباد الله ، التى تجمعهم فى الله وهم فى نطاق الحياة . والتى تزكى نفس معطيها من البخل ، وتزكى نفس آخـذها من الغل ؛ وتجعل الحياة فى المجتمع لائقة بالبشر المتعاونين المتضامنين الـكرام على الله . والإنفاق سرا وعلانية . السر حيث تصان الـكرامة وتطلب المروءة ، وتتحرج االنفس من الإعلان . والعلانية حيث تطلب الأسوة وتنفذ الشريعة ويطاع القانون . ولـكل موضعه فى الحياة .

« ويدرأون بالحسنة السيئة » . . والمقصود أنهم يقابلون السيئة بالحسنة . ولـكن التعبير يتجاوز المقدمة إلى النتيجة . فمقابلة السيئة بالحسنة يكسر شرة النفوس ، ويوجهها إلى الخير ؛ ويطفىء جذوة الشر ، ويرد نزغ الشيطان ، ومن ثم يدرأ السيئة ويدفعها فى النهاية . فعجل النص بهـذه النهاية وصـدر بها الآية ترغيبا فى مقـابلة السيئة بالحسنة وطلبا لنتيجتها المرتقبة ..

ثم هى إشارة خفية إلى مقابلة السيئة بالحسنة عندما يكون فى هـذا درء السيئة ودفعها لا إطماعها واستعلاؤها ! فأما حين تحتاج السيئة إلى القمع ، ويحتاج الشر إلى الدفع ، فلا مكان لمقابلتها بالحسنة ، لئلا ينتفش الشر ويتجرأ ويستعلى .

ودرء السيئة بالحسنة يكون غالبا فى المعاملة الشخصية بين المتماثلين . فأما المستعلى الغاشم فلا يجدى معه إلا الدفع الصارم : وأما المفسدون فى الأرض فلا يجدى معهم إلا الأخـذ الحاسم . والتوجيهات القرآنية متروكة لتدبر المواقف ، واستشارة الألبـاب ، والتصرف بما يرجح أنه الخير والصواب .

«أو لئك لهم عقبى الدار : جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم؛ والملائكة

يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم ، فنعم عقبي الدار » . .

«أولئك» فى مقامهم العالى لهم عقبي الدار : جنات عدن للإقامة والقرار .

فى هـذه الجنات يأتلف شملهم مع الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم . وهؤلاء يدخلون الجنة بصلاحهم واستحقاقهم . ولـكنهم يكرمون بتجمع شتاتهم ، وتلاقى أحبابهم ، وهى لذة أخرى تضاعاعف لذة الشعور بالجنان .

وفى جو التجمع والتلاقى يشترك الملائـكة فى التأهيل والتـكريم ، فى حركة رائحة غادية : « يدخلون عليهم من كل باب » . ويدعنا السياق نرى المشهد حاضرا وكأنما نشهده ونسمع الملائـكة أطوافا أطوافا : « سلام عليـكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار » فهو مهرجان حافل باللقاء والسلام والحركة الدائبة والإكرام .

وعلى الضفـة الأخرى أولئك الذين لا ألباب لهم فيتذكروا . ولا بصيرة لهم فيبصروا . وهم على النقيض فى كل شىء مع أولى الألباب :

« والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض . أولئك لهم اللعنة ، ولهم سوء الدار » . .

إنهم ينقضون عهد الله المأخوذ على الفطرة فى سورة الناموس الأزلى ؛ وينقضون من بعده كل عهد ، فمتى نقض العهد الأول فـكل عهد قائم عليه منقوض من الأساس . والذى لا يرعى الله لا يبقى على عهد ولا ميثاق . ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل على وجه العموم والإطلاق . ويفسدون فى الأرض فى مقابل صبر أولئك وإقامتهم للصلاة وإنفاقهم سرا وعلانية ودرء السيئة بالحسنة . فالإفساد فى الأرض يقابل هذا كله ، وترك شىء من هذا كله إنما هو إفساد أو دافع إلى الإفساد .

« أولئك » .. المبعدون المطرودون « لهم اللعنة » والطرد فى مقابل التـكريم هناك « ولهم سوء الدار » ولا حاجة إلى ذكرها ، فقد عرفت بمقابلها هناك ! .

أولئك فرحوا بالحياة الدنيا ومتاعها الزائل فلم يتطلعوا إلى الآخرة ونعيمها المقيم . مع أن

الله هو الذي يقدر الرزق فيوسع فيه أو يضيق فالأمر كله إليه فى الأولى والآخرة على السواء . ولو ابتغوا الآخرة ما حرمهم الله متاع الأرض ، وهو الذى أعطاهم إياه :

« الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع » . .

* * *

ولقد سبقت الإشارة إلى الفارق الضخم بين من يعلم أن ما أنزل إليك من ربك هو الحق، ومن هو أعمى . فالآن يحكى السياق شيئا عن العمى الذين لا يرون آيات الله فى الكون ، والذين لا يكفيهم هذا القرآن ، فإذا هم يطلبون آية . وقد حكى السياق شيئا كهذا فى شطر السورة الأول ، وعقب عليه بأن الرسول ليس إلا منذرا والآيات عند الله . وهو الآن يحكيه ويعقب عليه ببيان أسباب الهدى وأسباب الضلال . ويضع إلى جواره صورة القلوب المطمئنة بذكر الله ، لا تقلق ولا تطلب خوارق لتؤمن وهذا القرآن بين أيديها . هذا القرآن العميق التأثير ، حتى لتكاد تسير به الجبال وتقطع به الأرض ويكلم به الموتى لما فيه من قوة ودفعة وحيوية . وينهى الحديث عن هؤلاء الذين يتطلبون القوارع والخوارق بتيئيس المؤمنين منهم ، وبتوجيههم إلى المثلات من قبلهم ، وإلى ما يحل بالمكذبين من حولهم بين الحين والحين :

« ويقول الذين كفروا : لولا أنزل عليه آية من ربه ! قل : إن الله يضل من يشاء ، ويهدى إليه من أناب . الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله . ألا بذكر الله تطمئن القلوب. الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب .

« وكذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن . قل : هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت ، وإليه متاب .

« ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى . بل لله الأمر جميعا. أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا . ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله . إن الله لا يخلف الميعاد . ولقد استهزىء برسل من قبلك ، فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم . فكيف كان عقاب ؟ » . .

إن الرد على طلبهم آية خارقة ، أن الآيات ليست هى التى تقود الناس إلى الإيمان ، فللإيمان دواعيه الأصيلة فى النفوس ، وأسبابه المؤدية إليه من فعل هذه النفوس : « قل : إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب » . . فالله يهدى من ينيبون إليه . فالإنابة إلى الله هى التى جعلتهم أهلا لهداه . والمفهوم إذن أن الذين لا ينيبون هم الذين يستأهلون الضلال ، فيضلهم الله . فهو استعداد القلب للهدى وسعيه إليه وطلبه ، أما القلوب التى لا تتحرك إليه فهو عنها بعيد . .

ثم يرسم صورة شفيفة للقلوب المؤمنة . فى جو من الطمأنينة والأنس والبشاشة والسلام : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله » .. تطمئن بإحساسها بالصلة بالله ، والأنس بجواره ، والأمن فى جانبه . حماه . وتطمئن من قلق الوحدة ، وحيرة الطريق . بإدراك الحكمة فى الخلق والمبدأ والمصير . وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضر ومن كل شر إلا بما يشاء ، مع الرضى بالابتلاء والصبر على البلاء . وتطمئن برحمته فى الهداية والرزق والستر فى الدنيا والآخرة : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . .

ذلك الاطمئنان بذكر الله فى قلوب المؤمنين حقيقة عميقة يعرفها الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ، فاتصلت بالله . يعرفونها ، ولا يملكون بالكلمات أن ينقلوها إلى الآخرين الذين لم يعرفوها ، لأنها لا تنقل بالكلمات ، إنما تسرى فى القلب فيستروحها ويهش لها ويندى بها ويستريح إليها ويستشعر الطمأنينة والسلام ، ويحس أنه فى هذا الوجود ليس مفردا بلا أنيس . فكل ما حوله صديق ، إذ كل ما حوله من صنع الله الذى هو فى حماه .

وليس أشقى على وجه هذه الأرض ممن يحرمون طمأنينة الأنس إلى الله . ليس أشقى ممن ينطلق فى هذه الأرض مبتوت الصلة بما حوله فى الكون ، لأنه انفصم من العروة الوثقى التى تربطه بما حوله فى الله خالق الكون . ليس أشقى ممن يعيش لا يدرى لم جاء ؟ ولم يذهب ؟ ولم يعانى ما يعانى فى الحياة ؟ ليس أشقى ممن يسير فى الأرض يوجس من كل شىء خيفة لأنه لا يستشعر الصلة الخفية بينه وبين كل شىء فى هذا الوجود . ليس أشقى فى الحياة ممن يشق طريقه فريدا وحيدا شاردا فى فلاة ، عليه أن يكافح وحده بلا ناصر ولا هاد ولا معين .

وإن هنالك للحظات فى الحياة لا يصمد لها بشر إلا أن يكون مرتكنا إلى الله ، مطمئنا إلى

حماه ، مهما أوتى من القوة والثبات والصلابة والاعتداد . . ففى الحياة لحظات تعصف بهذا كله ، فلا يصمد لها إلا المطمئنون بالله : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » . .

هؤلاء المنيبون إلى الله ، المطمئنون بذكر الله ، يحسن الله مآبهم عنده ، كما أحسنوا الإنابة إليه وكما أحسنوا العمل فى الحياة :

« الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » . . طوبى (على وزن كبرى من طاب يطيب) للتفخيم والتعظيم . وحسن مآب إلى الله الذى أنابوا إليه فى الحياة . .

أما أولئك الذين يطلبون آية فلم يستشعروا طمأنينة الإيمان فهم فى قلق يطلبون الخوارق والمعجزات ولست أول رسول جاء لقومه بمثل ما جئت به حتى يكون الأمر عليهم غريبا ، فقد خلت من قبلهم الأمم وخلت من قبلهم الرسل . فإذا كفروا هم فلتمض على نهجك ولتتوكل على الله :

« كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم ، لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك ، وهم يكفرون بالرحمن . قل : هو ربى عليه توكلت وإليه متاب » . .

والعجيب أنهم يكفرون بالرحمان ، العظيم الرحمة ، الذى تطمئن القلوب بذكره ،واستشعار رحمته الكبرى . وما عليك إلا أن تتلو عليهم الذى أوحينا إليك ، فلهذا أرسلناك . فإن يكفروا فأعلن لهم أن اعتمادك على الله وحده ، وأنك تائب إليه وراجع ، لا تتجه إلى أحد سـواه .

وإنما أرسلناك لتتلو عليهم هذا القرآن . هذا القرآن العجيب ، الذى لوكان من شأن قرآن أن تسير به الجبال أو تقطع به الأرض ، أو يكلم به الموتى ، لكان فى هذا القرآن من الخصائص والمؤثرات ، ما تتم معه هذه الخوارق والمعجزات. ولكنه جاء لخطاب المكلفين الأحياء. فإذا لم يستجيبوا فقد آن أن ييأس منهم المؤمنون ، وأن يدعوهم حتى يأتى وعد الله للمكذبين :

« ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى . بل لله الأمر جميعا . أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا . ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله . إن الله لا يخلف الميعاد » . .

ولقد صنع هذا القرآن فى النفوس التى تلقته وتكيفت به أكثر من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وإحياء الموتى . لقد صنع فى هذه النفوس وبهذه النفوس خوارق أضخم وأبعد آثارا فى أقدار الحياة ، بل أبعد أثرا فى شكل الأرض ذاته . فكم غير الإسلام والمسلمون من وجه الأرض ، إلى جانب ما غيروا من وجه التاريخ ؟ !

وإن طبيعةهذا القرآن ذاتها . طبيعته فى دعوته وفى تعبيره . طبيعته فى موضوعه وفى أداته . طبيعته فى حقيقته وفى تأثيره . . إن طبيعة هــذا القرآن لتحتوى على قوة خارقة نافذة ، يحسها كل من له ذوق وبصر وإدراك للكلام ، واستعداد لإدراك مايوجه إليه ويوحى به . والذين تلقوه وتكيفوا به سيروا ماهو أضخم من الجبال ، وهو تاريخ الأمم والأجيال ؛ وقطعوا ماهو أصلب من الأرض ، وهو جمود الأفكار وجمود التقاليد ؛ وأحيوا ماهو أخمد من الموتى ، وهو الشعوب التى قتل روحها الطغيان والاوهام . والتحول الذى تم فى نفوس العرب وحياتهم أضخم بكثير من تحول الجبال عن رسوخها ، وتحول الأرض عن جمودها وتحول الموتى عن الموات ! « بل لله الأمر جميعا » وهو الذى يختار نوع الحركة وأداتها فى كل حال .

فإذا كان قوم بعد هــذا القرآن لم تتحرك قلوبهم فما كان أجدر المؤمنين الذى يحاولون تحريكها أن ييأسوا من القوم ؛ وأن يدعوا الأمر لله ، فلو شاء لخلق الناس باستعداد واحد للهدى ، فلهدى الناس جميعا على نحو خلقة الملائكة لو كان يريد . .

فليدعوهم إذن لأمر الله . وإذا كان الله قد قدر ألا يهلكهم هلاك استئصال فى جيل كبعض الأقوام قبلهم . فإن قارعة من عنده بعد قارعة تنزل بهم ، فتصيبهم بالضر والكرب ، وتهلك من كتب عليه منهم الهلاك . « أو تحل قريبا من دارهم » فتروعهم وتدعهم فى قلق وانتظار لمثلها ؛ وقد تلين بعض القلوب وتحركها وتحييها « حتى يأتى وعد الله » الذى أعطاهم إياه ، وأمهلهم إلى انتهاءأجله «إن الله لا يخلف الميعاد» فهو آت لا ريب فيه ، فملاقون فيه ماوعدوه .

والأمثلة حاضرة ، وفى مصارع الغابرين عبرة ، بعد الإنظار والإمهال :

« ولقد استهزىء برسل من قبلك ، فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم ، فكيف كان عقاب ؟ » .

وهو سؤال لا يحتاج إلى جواب . فلقد كان عقابا تتحدث به الأجيال !!!

* * *

والقضية الثانية هى قضية الشركاء . وقد أثيرت فى الشطر الأول من السورة كذلك . وهى تثار هنا فى سؤال تهكمى حين تقرن هذه الشركاء إلى الله القائم على كل نفس ، المجازى لها بما كسبت فى الحياة . وتنتهى هـذه الجولة بتصوير العذاب الذى ينتظر المفترين لهذه الفرية فى الدنيا والعذاب الأشق فى الآخرة . وفى مقابلة ماينتظر المتقين من أمن وسلام !

« أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ وجعلوا لله شركاء . قل : سموهم . أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض ؟ أم بظاهر من القول ؟ بل زين للذين كفروا مكرهم ، وصـدوا عن السبيل ، ومن يضلل الله فماله من هاد . لهم عذاب فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشق ، وما لهم من الله من واق . » .

« مثل الجنة التى وعـد المتقون أكلها دائم وظلها . تلك عقبى الذين اتقوا . وعقبى الـكافرين النار » ..

والله سبحانه رقيب على كل نفس ، مسيطر عليها فى كل حال ، عالم بما كسبت فى السر والجهر ولـكن التعبير القرآنى المصور يشخص الرقابة والسيطرة والعلم فى صورة حسية — على طريقة القرآن التخييلية — صورة ترتعد لها الفرائص : « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » فلتتصور كل نفس أن عليها حارسا قائما عليها مشرفا مراقبا يحاسبها بما كسبت. ومن ؟ إنه الله ! فأية نفس لا ترتعد لهذه الصورة وهى فى ذاتها حق ، إنما يجسمها التعبير للإدراك البشرى الذى يتأثر بالحسيات أكثر مما يتأثر بالتجريديات .

أفذلك كذلك ؟ ثم يجعلون لله شركاء ؟ ! هنا يبدو تصرفهم مستنـكرا مستغربا فى ظل هذا المشهد الشاخص المرهوب .

« وجعلوا لله شركاء » . . الله القائم على كل نفس بما كسبت ، لا تفلت منه ولا تروغ « قل : سموهم » ! فإنهم نـكرات مجهولة . وقد تـكون لهم أسماء . ولـكن التعبير هنا ينزلهم منزلة النـكرات التى لا تعرف أسماؤها . « أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض ؟ » يا للتهكم ! أم إنكم

أنتم البشر تعلمون ما لا يعلمه الله ؟ فتعلمون أن هناك آلهة فى الأرض أو غاب هذا عن علم الله ؟! إنها دعوى لا يجرؤون على تصورها . ومع هذا فهم يقولونها بلسان الحال ، حين يقول الله أن ليست هناك آلهة فيدعون وجودها وقد نفاه الله ! « أم بظاهر من القول؟ » تدعون وجودها بكلام سطحى ليس وراءه مدلول . وهل قضيــة الألوهية من التفاهة والهزل بحيث يتناولها الناس بظاهر من القول ؟ ! .

وينتهى هذا التهكم بالتقرير الجاد الفاصل : « بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل . ومن يضلل الله فما له من هاد » . . فالمسألة إذن أن هؤلاء كفروا وستروا أدلة الإيمان عنهم وستروا نفوسهم عن دلائل الهدى ، فحقت عليهم سنة الله ، وصورت لهم نفوسهم أنهم على صواب ، وأن مكرهم وتدبيرهم ضد الدعوة حسن وجميل ، فصدهم هذا عن السبيل الواصل المستقيم . ومن تقتضى سنة الله ضلاله لأنه سار فى طريق الضلال . فلن يهديه أحد . لأن سنة الله لا تتوقف إذا حقت بأسبابها على العباد .

والنهاية الطبيعية لهذه القلوب المتنكسة هى العذاب : « لهم عذاب فى الحياة الدنيا » إن أصابتهم قارعة فيها ، وإن حلت قريبا من دارهم فهو الرعب والقلق والتوقع . وإلا فجفاف القلب من بشاشة الإيمان عذاب ، وحيرة القلب بلا طمأنينة الإيمان عذاب . ومواجهة كل حادث بلا إدراك للحكمة الكبرى وراء الأحداث عذاب . . . « ولعذاب الآخرة أشق » . . ويتركه هنا بلا تحديد للتصور والتخيل بلا حدود « وما لهم من الله من واق » يحميهم من أخذه ، ومن نكاله . فهم معرضون بلا وقاية لما ينزله بهم من عذاب . .

وعلى الضفــة الأخرى « المتقون » ــ فى مقابل « وما لهم من الله من واق » . المتقون الذين وقوا أنفسهم بالإيمان والصلاح فهم فى مأمن من العذاب . بل لهم فوق الأمن الجنة التى وعدوها : « تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها » فهو المتاع والاسترواح ــ ومشهد الظل الدائم والثمر الدائم مشهد تطمئن له النفس وتستريح ــ فى مقابل المشقة هناك :

ذلك العذاب وهذه الجنة هما النهاية الطبيعية لهؤلاء وهؤلاء : « تلك عقبى الذين اتقوا . وعقبى الكافرين النار » . .

* * *

ويمضى السياق مع قضية الوحى وقضية التوحيد معا يتحدث عن موقف أهل الكتاب من القرآن ومن الرسول — صلى الله عليه وسلم — ويبين للرسول أن ما أنزل عليه هو الحكم الفصل فيما جاءت به الكتب قبله ، وهو المرجع الأخير ، أثبت الله فيه ما شاء إثباته من أمور دينه الذى جاء به الرسل كافة ؛ ومحا ما شاء محوه مما كان فيها لانقضاء حكمته . فليقف عند ما أنزل عليه لا يطيع فيه أهواء أهل الكتاب فى كبيرة ولا صغيرة . أما الذين يطلبون منه آية ، فالآيات بإذن الله وعلى الرسول البلاغ .

« والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ، ومن الأحزاب من ينكر بعضه . قل : إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو . وإليه مآب . وكذلك أنزلناه حكما عربيا ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا واق . ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، وجعلنا لهم أزواجا وذرية ، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله . لكل أجل كتاب . يمحو الله ما يشاء ويثبت ، وعنده أم الكتاب . وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ ، وعلينا الحساب » . .

إن الفريق الصادق من أهل الكتاب فى الاستمساك بدينه ، يجد فى هذا القرآن مصداق القواعد الأساسية فى عقيدة التوحيد ؛ كما يجد الاعتراف بالديانات التى سبقته وكتبها ، ودرسها مع الإكبار والتقدير ، وتصور الآصرة الواحدة التى تربط المؤمنين بالله جميعا . فمن ثم يفرحون ويؤمنون . والتعبير بالفرح هنا حقيقة نفسية فى القلوب الصافية وهو فرح الالتقاء على الحق ، وزيادة اليقين بصحة ما لديهم ومؤازرة الكتاب الجديد له . . « ومن الأحزاب من ينكر بعضه » .. الأحزاب من أهل الكتاب .. ولم يذكر السياق هذا البعض الذى ينكرونه ، لأن الغرض هو ذكر هذا الإنكار للرد عليه : « قل : إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به . إليه أدعو وإليه مآب » فله وحده العبادة ، وإليه وحده الدعوة ، وله وحده المآب .

وقد أمر الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يعلن منهجه فى مواجهة من ينكر بعض الكتاب ، وهو استمساكه الكامل بكامل الكتاب الذى أنزل إليه من ربه ، سواء فرح به أهل الكتاب كله ، أم أنكر فريق منهم بعضه . ذلك أن ما أنزل إليه هو الحكم الأخير ، نزل بلغته العربية وهو مفهوم له تماما ، وإليه يرجع ما دام هو حكم الله الأخير فى العقيدة : « وكذلك أنزلناه حكما عربيا » .. «ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله

من ولى ولا واق » فالذى جاءك هو العلم اليقين ، وما يقوله الأحزاب أهواء لا تستند إلى علم أو يقين . وهذا التهديد الموجه إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبلغ فى تقرير هذه الحقيقة . التى لا تسامح فى الانحراف عنها ، حتى ولو كان من الرسول ، وحاشاه عليه الصلاة والسلام .

وإذا كان هناك اعتراض على بشرية الرسول فقد كان الرسل كلهم بشرا : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، وجعلنا لهم أزواجا وذرية » . وإذا كان الاعتراض بأنه لم يأت بخارقة مادية ، فذلك ليس من شأنه إنما هى شأن الله : « وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله » وفق ما تقتضيه حكمته وعند ما يشاء .

وإذا كان هناك خلاف جزئى بين ما أنزل على الرسول وما عليه أهل الكتاب ، فإن لكل فترة كتابا ، وهذا هو الكتاب الأخير : « لكل أجل كتاب . يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » فما انقضت حكمته يمحوه ، وما هو نافع يثبته . وعنده أصل الكتاب ، المتضمن لكل ما يثبته وما يمحوه . فعنه صدر الكتاب كله ، وهو المتصرف فيه ، حسبما تقتضى حكمته ، ولا راد لمشيئته ولا اعتراض .

وسواء أخذهم الله فى حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بشىء مما أوعدهم ، أو توفاه إليه قبل ذلك ، فإن هذا لايغير من الأمر شيئا ، ولا يبدل من طبيعة الرسالة وطبيعة الألوهية : « وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » . .

* * *

وإن يد الله القوية لبادية الآثار فيما حولهم ، فهى تأتى الأمم القوية الغنية ـ حين تبطر وتكفر وتفسد ـ فتنقص من قوتها وتنقص من ثرائها وتنقص من قدرها ؛ وتحصرها فى رقعة من الأرض ضيقة بعد أن كانت ذات سلطان وذات امتداد وإذا حكم الله عليها بالإفساد فلا معقب لحكمه ، ولا بد له من النفاذ :

« أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ! والله يحكم لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب » . .

وليسوا هم بأشد مكرا ولا تدبيرا ولا كيدا ممن كان قبلهم . فأخذهم الله وهو أحكم تدبيرا وأعظم كيدا :

« وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا . يعلم ماتكسب كل نفس ، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار » . .

ويختم السورة بحكاية إنكار الكفار للرسالة . وقد بدأها بإثبات الرسالة . فيلتقى البدء والختام . ويشهد الله مكتفيا بشهادته . وهو الذى عنده العلم المطلق بهذا الكتاب وبكل كتاب :

« ويقول الذين كفروا : لست مرسلا . قل : كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب » .

* * *

وتنتهى السورة وقد طوفت بالقلب البشرى فى أرجاء الكون ، وأرجاء النفس ، ووقعت عليه إيقاعات مطردة مؤثرة عميقة . وتركته بعد ذلك إلى شهادة الله التى جاء بها المطلع وجاء بها الختام ، والتى يحسم بها كل جدل ، وينتهى بعدها كل كلام . .

سورة ابراهيم مكية
وآياتها ٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

« الٓر . كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ – بِإِذْنِ رَبِّهِمْ – إِلَى صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ * اللهِ ٱلَّذِى لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ؛ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ ، وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا . أُولٰئِكَ فِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ، فَيُضِلُّ ٱللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا : أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ ، وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ ٱللهِ ، إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ : ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ ، وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ ، وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ؛ وَفِى ذٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَىٰ : إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ ٱللهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ .

« أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ؟ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ، وَقَالُوا : إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ : أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ؛ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى . قَالُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ، تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ، فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ : إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ، وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ؟ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ؛ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ : لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا . فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ . ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ .

« وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ، وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ؛ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ، وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ .

« مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ، لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ . ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ .

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ؟ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ .

« وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً ، فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ، فَهَلْ

أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قَالُوا : لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ، سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا ، مَالَنَا مِنْ مَحِيصٍ *وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ : إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ، وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ،مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ، إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

« وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ، تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ .

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ،اُجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ، مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ *يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ ، وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ » . .

هـذه السورة ـ سورة إبراهيم ـ مكية ، موضوعها الأساسي هو موضوع السور المكية الغالب : العقيدة في أصولها الكبيرة : الرسالة والتوحيد والبعث والحساب والجزاء .

ولكن السياق في السورة يسلك نهجا خاصا بها في عرض هـذا الموضوع ، وحقائقه الأصلية . نهجا مفردا يميزها ـ كالشأن في كل سورة قرآنية ـ عن السور غيرها . يميزها بجوها وطريقة أدائها ، والأضواء والظلال الخاصة التي تعرض فيها حقائقها الكبرى . ولون هـذه الحقائق التي قد لا تفترق موضوعيا عن مثيلاتها في السور الأخرى ؛ ولكنها تعرض من زاوية خاصة ، في أضواء خاصة ، فتوحي إيحاءات خاصة . كما تختلف مساحتها في رقعة السورة وجوها ، فتزيد أطرافا وتنقص أطرافا ، فيحسها القارىء جديدة بما وقع فيها من تجديد في « اللقطات الفنية » . ونحن نستعمل هـذا التعبير « اللقطات الفنية » لأنه يلاحظ في صورته المعجزة في طريقة الأداء القرآنية !

ويبدو أنه كان لجو السورة من اسمها نصيب . . إبراهيم . . أبو الأنبياء . . المبارك ، الشاكر الأواه المنيب . وكل الظلال التي تخلعها هـذه الصفات ملحوظة فى جو السورة ، وفى الحقائق التي تبرزها ، وفى طريقة الأداء ، وفى التعبير والإيقاع .

ولقد تضمت السورة عدة حقائق رئيسية فى العقيدة . ولكن حقيقتين كبيرتين تظللان جو السورة كلها . وهما الحقيقتان المتناسقتان مع ظل إبراهيم فى جو السورة : حقيقة وحدة الرسالة والرسل ، ووحدة دعوتهم ، ووقفتهم أمة واحدة فى مواجهة الفرقة المكذبة بدين الله على اختلاف الأمكنة والأزمان . وحقيقة نعمة الله على البشر وزيادتها بالشكر ؛ ومقابلة أكثر الناس لها بالجحود والكفران . .

وبروز هاتين الحقيقتين ، أو هذين الظلين . لاينفى أن هناك حقائق أخرى فى جو السورة . ولكن هاتين الحقيقتين تظللان جو السورة . وهـذا ماأردنا الإشارة إليه :

تبدأ السورة ببيان وظيفة الرسول وما أوتيه من كتاب ، فهى إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله : « كتاب أنزل إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » .

وتختم بهـذا المعنى وبالحقيقة الكبرى التي تتضمنها الرسالة . حقيقة التوحيد : « هـذا بلاغ للناس ولينذروا به ، وليعلموا أنما هو إله واحد ، وليذكر أولو الألباب » .

وفى أثنائها يذكر أن موسى قد أرسل بمثل ما أرسل به محمد — صلى الله عليه وسلم — ولمثل ماأرسل به حتى فى ألفاظ التعبير : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور » . .

ويذكر كذلك أن وظيفة الرسل عامة كانت هى البيان : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » . .

وتتضمن إلى جانب وظيفة الرسول بيان حقيقته البشرية ، وهى التي تحدد وظيفته . فهو مبلغ ومنذر وناصح ومبين . ولكنه لا يملك أن يأتى بخارقة إلا بإذن الله ، وحين يشاء الله ، لا حين يشاء هو أو قومه ؛ ولا يملك كذلك أن يهدى قومه أو يضلهم ، فالهدى والضلال متعلقان بسنة الله التي اقتضتها مشيئته المطلقة .

ولقد كانت بشرية الرسل هي موضع الاعتراض من جميع الأقوام في جاهليتهم ، والسورة هنا تحكي قولهم مجتمعين : « قالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كانوا يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين » .

وتحكي رد رسلهم كذلك مجتمعين : « قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده . وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله . وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

ويتضمن السياق كذلك أن إخراج الناس من الظلمات إلى النور إنما يتم « بإذن ربهم » .. وكل رسول يبين لقومه « فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ، وهو العزيز الحكيم » .

وبهذا وذلك تتحدد حقيقة الرسول ، فتتحدد وظيفته في حدود هذه الحقيقة ، ولا تشتبه حقيقة الرسل البشرية وصفاتهم ، بشيء من حقيقة الذات الالهية وصفاتها . وكذلك يتجرد توحيد الله بلا ظل من مماثلة أو مشابهة .

كذلك تتضمن السورة تحقق وعد الله للرسل والمؤمنين بهم إيمانا حقا . تحقق ذلك الوعد في الدنيا بالنصر والاستخلاف ، وفي الآخرة بعذاب المكذبين ونعيم المؤمنين .

يصور السياق هذه الحقيقة الكبيرة في نهاية المعركة بين الرسل مجتمعين وقومهم مجتمعين في الدنيا « وقال الذين كفروا لرسلهم : لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد .. واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد .. » .

ويصورها في مشاهد القيامة في الآخرة :

« وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام » ..

« وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد ، سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار » ..

ويصورها في الأمثال التي يضربها لهؤلاء وهؤلاء :

« ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ؛ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار . يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله مايشاء » .. « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، لا يقدرون مما كسبوا على شيء . ذلك هو الضلال البعيد » ..

* * *

فأما الحقيقتان اللتان تظللان جو السورة ، وتتسقان مع ظل إبراهيم : أبى الأنبياء . الشكور الأواه المنيب . وهما حقيقة وحدة الرسالة والرسل ، ووحدة دعوتهم ، ووقفتهم أمة واحدة فى مواجهة الفرقة المكذبة . وحقيقة نعمة الله على البشر كافة وعلى المختارين منهم بصفة خاصة .. فنفردهما هنا بالحديث .

فأما الحقيقة الأولى فيبرزها السياق فى معرض فريد فى طريقة الأداء . لقد أبرزها سياق بعض السور الماضية فى صورة توحيد الدعوة التى يجيء بها كل رسول ؛ فيقول كلمته لقومه ويمضى ، ثم يجيء رسول ورسول . كلهم يقولون الكلمة ذاتها ، ويلقون الرد ذاته ويصيب المكذبين ما يصيبهم فى الدنيا ، وينظر بعضهم ويمهل إلى أجل فى الأرض أو إلى أجل فى يوم الحساب . ولكن السياق هناك كان يعرض كل رسول فى مشهد ، كالشريط التحرك منذ الرسالات الأولى . وأقرب مثل لهذا النسق سورة هود .

فأما سورة إبراهيم ــ أبى الأنبياء ــ فتجمع الأنبياء كلهم فى صف وتجمع المكذبين كلهم فى صف . وتجرى المعركة بينهم فى الأرض ، ثم لا تنتهى هنا ، بل تتابع خطواتها كذلك فى يوم الحساب !

ونبصر فنشهد أمة الرسل ، وفرقة المكذبين ، فى صعيد واحد ، على تباعد الزمان والمكان . فالزمان والمكان عرضان زائلان ، أما الحقيقة الكبرى فى هذا الكون ــ حقيقة الإيمان والكفر ــ فهى أضخم وأبرز من عرضى الزمان والمكان :

«ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود . والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله . جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم ، وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإننا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم : أفى الله شك فاطر السماوات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى . قالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ،ولنصبرن على ما آذيتمونا . وعلى الله فليتوكل المتوكلون . وقال الذين كفروا لرسلهم : لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا . فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ، ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد .

« واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ، يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ » ..

فها هنا تتجمع الأجيال من لدن نوح وتتجمع الرسل ؛ ويتلاشى الزمان والمكان ؛ وتبرز الحقيقة الكبرى : حقيقة الرسالة وهى واحدة . واعتراضات المكذبين عليها وهى واحدة . وحقيقة نصر الله للمؤمنين وهى واحدة .وحقيقة استخلاف الله للصالحين وهى واحدة .وحقيقة الخيبة والخذلان للمتجبرين وهى واحدة . وحقيقة العذاب الذى ينتظرهم هناك وهى واحدة .. وذلك إلى التماثل بين قول الله لمحمد — صلى الله عليه وسلم — : «كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » وحكاية قوله لموسى — عليه السلام — : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور » ..

ولاتنتهى المعركة بين الكفر والإيمان هنا بل يتابع السياق خطواته بها إلى ساحة الآخرة . فتبرز معالمها فى مشاهد القيامة المتنوعة التى تتضمنها السورة (وسيأتى استعراضها فى مواضعها من سياق السورة) وهى تشير إلى أنها معركة واحدة تبدأ فى الدنيا وتنتهى فى الآخرة ، ولا انفصال بينهما ، إنما تكمل إحداهما الأخرى ..

وتكمل الأمثال التى تبدأ فى الدنيا وتنتهى فى الآخرة إبراز معالم المعركة بين الفريقين ، ونتائجها الأخيرة : مثل الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة : شجرة النبوة ، وشجرة الإيمان ، وشجرة الخير . والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة : شجرة الباطل والتكذيب والشر والطغيان .

وأما الحقيقة الثانية المتعلقة بالنعمة والشكر والبطر فتطبع جو السورة كله ، وتتناثر فى سياقها .

يعدد الله نعمه على البشر كافة ، مؤمنهم وكافرهم ، صالحهم وطالحهم ، برهم وفاجرهم ، طائعهم وعاصيهم . وإنها لرحمة من الله وسماحة وفضل أن يتيح للكافر والفاجر والعاصى نعمه فى هذه الأرض ، كالمؤمن والبار والطائع : لعلهم يشكرون : ويعرض هذه النعمة فى أضخم مجالى الكون وأبرزها ، ويضعها داخل إطار من مشاهد الوجود العظيمة : ـ

« الله الذى خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماءفأخرج به من الثمرات رزقا لكم ؛ وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ماسألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . إن الإنسان لظلوم كفار » .

وفى إرسال الرسل للناس نعمة تعدل تلك أو تربو عليها : «كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » ..

والنور أجلى نعم الله فى الوجود . والنور هنا هو النور الأكبر . النور الذى يشرق به كيان الإنسان ، ويشرق به الوجود فى قلبه وحسه .. وكذلك كانت وظيفة موسى فى قومه . ووظيفة الرسل كما بينتها السورة .

وفى قول الرسل مجتمعين . « يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم » .. والدعوة لأجل الغفران نعمة تعدل نعمة النور ، وهى منه قريب ..

وفى جو الحديث عن النعمة يذكر موسى قومه بأنعم الله عليهم : «وإذ قال موسى لقومه : اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » .

وفى هذا الجو يذكر وعد الله للرسل « فأوحينا إليهم لنهلكهن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم » وهى نعمة .

ويبرز السياق حقيقة زيادة النعمة بالشكر : « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » . مع بيان أن الله غنى عن الشكروعن الشاكرين : « إن تكفروا أنتم ومن الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد » .

ويقرر السياق أن الإنسان فى عمومه لا يشكر النعمة حق الشكر : « وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » ..

ولكن الذين يتدبرون آيات الله ، وتتفتح لها بصائرهم يصبرون على البأساء ويشكرون على النعماء : « إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » .

ويمثل الصبر والشكر فى شخص إبراهيم فى موقف خاشع ، وفى دعاء واجف ، عند بيت الله الحرام كله حمد وشكر وصبر ودعاء .

« وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيرا من الناس ، فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم . ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء . الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء . رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ، ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » . .

ولأن النعمة والشكر عليها والكفر بها تطبع جو السورة تجىء التعبيرات والتعليقات فيها متناسقة مع هذا الجو : « وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .. « إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور » .. « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار » .. « واذكروا نعمة الله عليكم » . . « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق » .. وفى رد الأنبياء على اعتراض المكذبين بأنهم بشر يجىء : « ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » فيبرز منة الله تنسيقا للرد مع جو السورة كله .جو النعمة والمنة والشكر والكفران..

وهكذا يتساوق التعبير اللفظى مع ظلال الجو العام فى السورة كلها على طريقة التناسق الفنى فى القرآن . .

* * *

وتنقسم السورة إلى مقطعين متماسكى الحلقات :

المقطع الأول يتضمن بيان حقيقة الرسالة وحقيقة الرسول . ويصور المعركة بين أمة الرسل وفرقة المكذبين فى الدنيا وفى الآخرة ، ويعقب عليها بمثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة .

والمقطع الثانى يتحدث عن نعم الله على البشر ، والذين كفروا بهذه النعمة وبطروا . والذين آمنو بها وشكروا . ونموذجهم الأول هو ابراهيم ويصور مصير الظالمين الكافرين بنعمة الله فى سلسلة من أعنف مشاهد القيامة وأجملها ، وأحفلها بالحركة والحياة . . ليختم السورة ختاما يتسق مع مطلعها . « هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلمو أنما هو إله واحد ، وليذكر أولو الألباب » ..

فلنأخذ فى السير مع المقطع الأول فى السياق :

* * *

« ألر . كتاب أنزل إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد . الله الذى له مافى السماوات ومافى الأرض ، وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، أولئك فى ضلال بعيد . وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله من يشاء ، ويهدى من يشاء ، وهو العزيز الحكيم » . .

ألف . لام . را . . « كتاب أنزلناه إليك » لم تنشئه أنت ، كتاب أنزلناه إليك لغاية «لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » . لتخرج هذه البشرية من الظلمات . ظلمات النفس وظلمات العقل وظلمات الوهم والخرافة . وظلمات الأوضاع والتقاليد . وظلمات الحيرة فى تيه الأرباب المتفرقة ، وفى اضطراب التصورات والقيم والتقدير .. لتخرج البشرية من هذه

الظلمات كلها إلى النور . النور الذى يكشف هذه الظلمات . يكشفها فى عالم الضمير وفى دنيا التفكير . ثم يكشفها فى واقع الحياة والقيم والأوضاع والتقاليد .

والإيمان بالله نور يشرق فى القلب ، فيشرق به هذا الكيان البشرى ، المؤلف من الطينة الغليظة ومن نفخة روح الله . فإذا ماخلا من إشراق هذه النفخة ، وإذا ماطمس هذه الإشراقة فيه استحال طينة معتمة . طينة من لحم ودم ، فاللحم والدم من جنس طينة الأرض ومادته لولا تلك الإشراقة التى تنتفض فيه من روح الله يرقرقها الإيمان ويجلوها ، ويطلقها تشف فى هذا الكيان المعتم ، ويشف بها هذا الكيان المعتم .

والإيمان بالله نور تشرق به النفس ، فترى الطريق . ترى الطريق واضحة إلى الله ، لا يشوبها غبش ولا يحجبها ضباب . غبش الأوهام وضباب الخرافات . أو غبش الشهوات وضباب الأطماع . ومتى رأت الطريق سارت على هدى لا تتعثر ولا تضطرب ولا تتردد ولا تحتار .

والإيمان بالله نور تشرق به الحياة . فإذا الناس كلهم عباد متساوون . تربط بينهم آصرتهم فى الله ، فلا ينقسمون إلى عبيد وطغاة . وتربطهم بالكون كله رابطة المعرفة . معرفة الناموس المسير لهذا الكون وما فيه ومن فيه . فإذا هم فى سلام مع الكون وما فيه ومن فيه .

والإيمان بالله نور . نور العدل . ونور الحرية . ونور المعرفة . ونور الأنس بجوار الله ، والاطمئنان إلى عدله ورحمته وحكمته فى السراء والضراء . ذلك الاطمئنان الذى يستتبع الصبر فى الضراء والشكر فى السراء على نور من إدراك الحكمة فى البلاء .

وإن وراء هذا التعبير القصير : « لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » لآفاقا لحقائق ضخمة عميقة فى عالم العقل والقلب والضمير .

« لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » .. « بإذن ربهم » . . فليس فى قدرة الرسول إلا البلاغ ، وليس من وظيفته إلا البيان . أما تلك الغاية التى قد يحققها غاية إخراج الناس من الظلمات إلى النور . فإنها تتحقق بإذن الله ، وفق سنته التى ارتضتها مشيئته ، وما الرسول إلا رسول ! .

« لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم » . . « إلى صراط العزيز الحميد » . . فالصراط بدل من النور . وصراط الله طريقه ، وسنته ، وناموسه الذى يحكم الوجود . والنور يهدى إلى هذا الصراط ، أو النور هو الصراط . وهو أقوى فى المعنى . فالنور المشرق فى ذات النفس هو المشرق فى ذات الكون . هو السنة . هو الناموس . والنفس التى تعيش فى هذا النور لا تخطىء الإدراك ولا تخطىء التصور ولا تخطىء السلوك . فهى على صراط مستقيم « صراط العزيز الحميد » مالك القوة القاهر المسيطر المحمود اليد المشكور .

والقوة تبرز هنا لتهديد من يكفرون ، والحمد يبرز لتذكير من يشكرون . . ثم يعقبها :

« الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ، وويل للكافرين من عذاب شديد » . .

لتخرجهم من الظلمات إلى النور ، إلى صراط العزيز الحميد . الله المتصف بالألوهية المالك لما فى السماوات وما فى الأرض . فمن خرج واهتدى فذاك . ولا يذكر عنه شيئا هنا ، إنما يمضى السياق إلى تهديد الكافرين ينذرهم بالويل من عذاب شديد . جزاء كفرهم هذه النعمة. نعمة إرسال الرسول بالكتاب ليخرجهم من الظلمات إلى النور . وهى النعمة الكبرى التى لا يقوم لها شكر إنسان . فكيف بالكفران ! .

ثم يكشف عن صفة تحمل معنى العلة لكفر الكافرين بنعمة الله التى يحملها رسوله الكريم:

« الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة » . . فاستحباب الحياة الدنيا على الآخرة كثيرا ما يصطدم بتكاليف الإيمان ؛ ويتعارض مع الاستقامة على الصراط . وليس الأمر كذلك حين تستحب الآخرة ، لأنه عندئذ تصلح الدنيا ، ويصبح المتاع بها معتدلا ، ويراعى فيه وجه الله . فلا يقع التعارض بين استحباب الآخرة ومتاع هذه الحياة .

إن الذين يوجهون قلوبهم للآخرة ، لا يخسرون متاع الحياة الدنيا ــ كما يقوم فى الأخيلة المنحرفة ــ فصلاح الآخرة فى الإسلام يقتضى صلاح هذه الدنيا . والإيمان بالله يقتضى حسن الخلافة فى الأرض . وحسن الخلافة فى الأرض هو استعمارها والتمتع بطيباتها . إنه لا تعطيل للحياة فى الإسلام انتظارا للآخرة ، ولكن تعمير للحياة بالحق والعدل والاستقامة ابتغاء رضوان الله ، وتمهيدا للآخرة . . هذا هو الإسلام:

فأما الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ؛ فلا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم من

الاستئثار بخيرات الأرض ومن الكسب الحرام ، ومن استغلال الناس وغشهم واستعبادهم . . لا يملكون أن يصلوا إلى غاياتهم هذه فى نور الإيمان بالله ، وفى ظل الاستقامة على هداه ومن ثم يصدون عن سبيل الله . يصدون أنفسهم ويصدون الناس ، ويبغونها عوجا لا استقامة فيها ولا عدالة . وحين يفلحون فى صد أنفسهم وصد غيرهم عن سبيل الله ، وحين يتخلصون من استقامة سبيله وعدالتها ، فعندئذ فقط يملكون أن يظلموا وأن يطغوا وأن يغشوا وأن يخدعوا وأن يغروا الناس بالفساد ، فيتم لهم الحصول على ما يبغونه من الاستئثار بخيرات الأرض ، والكسب الحرام ، والمتاع المرذول ، بلا مقاومة ولا استنكار .

إن استقامة الإيمان ضمانة للحياة ، وضمانة للأحياء من أثرة الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ؛ واستئثارهم بخيرات هذه الحياة . . « أولئك فى ضلال بعيد » لا يرجى لهم معه عودة من تيه الظلمات ! .

« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » . . وهذه نعمة شاملة للبشر فى كل رسالة . فلكى يتمكن الرسول من إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، لم يكن بد من أن يرسل بلغتهم ليبين لهم وليفهموا عنه ، فتتم الغاية من الرسالة .

وقد أرسل النبى — صلى الله عليه وسلم — بلسان قومه — وإن كان رسولا إلى الناس كافة — لأن قومه هم الذين سيحملون رسالته إلى كافة البشر . وعمره — صلى الله عليه وسلم — محدود . وقد أمر ليدعو قومه أولا حتى تخلص الجزيرة العربية للإسلام . ومن ثم تكون مهدا يخرج منه حملة رسالة محمد إلى سائر بقاع الأرض . والذى حدث بالفعل — وهو من تقدير الله العليم الخبير — أن اختير الرسول إلى جوار ربه عند انتهاء الإسلام إلى آخر حدود الجزيرة ، وبعث جيش أسامة إلى خارج الحدود ، الذى توفى الرسول — صلى الله عليه وسلم — ولم يتحرك بعد .. وحقيقة إن الرسول قد بعث برسائله إلى خارج الجزيرة يدعو إلى الإسلام ؛ تصديقا لرسالته إلى الناس كافة . ولكن الذى قدره الله له ، والذى يتفق مع طبيعة العمر البشرى المحدود ، أن يبلغ الرسول — صلى الله عليه وسلم — قومه بلسانهم ، وأن تتم رسالته إلى البشر كافة عن طريق حملة هذه الرسالة إلى الأصقاع . . وقد كان . . فلا تعارض بين رسالته للناس كافة ، ورسالته بلسان قومه ، فى تقدير الله ، وفى واقع الحياة .

« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ».. « فيضل الله من يشاء ويهدى من

يشاء » . . إذ تنتهي مهمة الرسول - كل رسول - عند البيان . أما ما يترتب عليه من هدى ومن ضلال ، فلا قدرة له عليه ، وليس خاضعا لرغبته ، إنما هو من شأن الله . وضع له سنة ارتضتها مشيئته المطلقة . فمن سار على درب الضلال ضل ، ومن سار على درب الهدى وصل .. هذا وذلك يتبع مشيئة الله ، التي أقامت سنته في الحياة . . « وهو العزيز الحكيم » القادر على تصريف الناس والحياة ، يصرفهم بحكمة وتقدير فليست الأمور متروكة جزافا بلا توجيه ولا تدبير .

* * *

وكذلك كانت رسالة موسى . بلسان قومه .

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا : أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ، وذكرهم بأيام الله . إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور . وإذ قال موسى لقومه : اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون ، يسومونكم سوء العذاب ، ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم . وإذ تأذن ربكم : لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد . وقال موسى : إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد » ..

والتعبير يوحد بين صيغة الأمر الصادر لموسى والصادر لمحمد - مع مراعاة طبيعة كل من الرسالتين - توحيدا لطبيعة الوظيفة وطبيعة الغاية . وتمشيا مع نسق الأداء في السورة . وقد تحدثنا عنه آنفا - فإذا الأمر هناك : « لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » . والأمر هنا : « أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور » الأولى للناس كافة والثانية لقوم موسى خاصة ، ولكن الغاية واحدة .

أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور . . « وذكرهم بأيام الله » . . وكل الأيام أيام الله . ولكن المقصود هنا أن يذكرهم بالأيام التي يبدو فيها للبشر أو لجماعة منهم أمر بارز أو خارق بالنعمة أو بالنقمة كما سيجيء في حكاية تذكير موسى لقومه . وقد ذكرهم بأيام لهم ، وأيام لأقوام نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم . فهذه هي الأيام . « إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » . . ففي هذه الأيام ما هو بؤسى فهو آية للصبر ، وفيها ما هو نعمى فهو آية للشكر . والصبار الشكور هو الذي يدرك هذه الآيات ، ويدرك ما وراءها ، ويجد فيها عبرة له وعظة ؛ كما يجد فيها تسرية وتذكيرا .

وراح موسى يؤدى رسالته ، ويذكر قومه :

« وإذ قال موسى لقومه : اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم » ..

إنه يذكرهم بنعمة الله عليهم . نعمة النجاة من سوء العذاب الذى كانوا يلقونه من آل فرعون ، يسامونه سوما ، أى يوالون به ويتابعون ، فلا يفتر عنهم ولا ينقطع . ومن ألوانه البارزة تذبيح الذكور من الأولاد واستحياء الإناث ، منعا لتكاثر القوة اللازمة فيهم واستبقاء لضعفهم وذلهم . فإنجاء الله لهم من هذه الحال نعمة تذكر . وتذكر لتشكر .. « وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » بلاء بالعذاب أولا ، لامتحان الصبر والتماسك والمقاومة والعزم على الخلاص والعمل له . فليس الصبر هو احتمال الذل والعذاب وكفى . ولكن الصبر هو احتمال العذاب بلا تضعضع ولا هزيمة روحية ، واستمرار العزم على الخلاص ، والاستعداد للوقوف فى وجه الظلم والطغيان . وإلا فما هو صبر مشكور ذلك الاستسلام للذل والهوان . . وبلاء بالنجاة ثانيا لامتحان الشكر والاعتراف بنعمة الله ، والاستقامة على الهدى فى مقابل النجاة .

ويمضى موسى فى البيان لقومه . بعد ماذكرهم بأيامه . ووجههم إلى الغاية من العذاب والنجاة . وهى الصبر للعذاب والشكر للنجاة . يمضى ليبين لهم مارتبه الله جزاء على الشكر والكفران :

« وإذ تأذن ربكم : لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » ..

ونقف نحن أمام هذه الحقيقة الكبيرة : حقيقة زيادة النعمة بالشكر ، والعذاب الشديد على الكفر .

نقف نحن أمام هذه الحقيقة تطمئن إليها قلوبنا أول وهلة لأنها وعد من الله صادق . فلا بد أن يتحقق على أية حال . . فإذا أردنا أن نرى مصداقها فى الحياة ونبحث عن أسبابه المدركة لنا ، فإننا لا نبعد كثيرا فى تلمس الأسباب .

إن شكر النعمة دليل على استقامة المقاييس فى النفس البشرية . فالخير يشكر لأن الشكر هو جزاؤه الطبيعى فى الفطرة المستقيمة .

هذه واحدة . . والأخرى أن النفس التى تشكر الله على نعمته ، تراقبه فى التصرف بهذه النعمة . بلا بطر ، وبلا استعلاء على الخلق ، وبلا استخدام للنعمة فى الأذى والشر والدنس والفساد .

وهـذه وتلك مما يزكى النفس ، ويدفعها للعمل الصالح ، وللتصرف الصالح فى النعمة بما ينميها ويبارك فيها . ويرضى الناس عنها وعن صاحبها ، فيكونون له عونا ويصلح روابط المجتمع فتنمو فيه الثروات فى أمان . إلى آخر الأسباب الطبيعية الظاهرة لنا فى الحياة . وإن كان وعد الله بذاته يكفى لاطمئنان المؤمن أدرك الأسباب أو لم يدركها فهو حق واقع لأنه وعد الله .

والـكفر بنعمة الله قد يكون بعدم شكرها . أو بإنـكار أن الله واهبها ، إنما هو العلم والخبرة والـكد الشخصى والسعى . كأن هـذه الطاقات ليست نعمة من نعم الله ! وقد يكون بسوء استخدامها بالبطر والـكبر على الناس واستغلالها للشهوات والفساد .. وكله كفر بنعمة الله ..

والعذاب الشديد قد يتضمن محق النعمة . عينا بذهابها ، أو سحق آثارها فى الشعور . فـكم من نعمة تكون بذاتها نقمة يشقى بها صاحبها ويحسد الخالين ! وقد يكون عذابا مؤجلا إلى أجله فى الدنيا أو فى الآخرة كما يشاء الله . ولـكنه واقع لأن الـكفر بنعمة الله لا يمضى بلا جزاء .

ذلك الشكر لا تعود على الله عائدته . وهذا الـكفر لا يرجع على الله أثره . فالله غنى بذاته محمود بذاته ، لا بحمد الناس وشكرهم على عطاياه :

« وقال موسى ، إن تـكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد » ..

إنما هو صلاح الحياة يتحقق بالشكر ، ونفوس الناس تزكو بالاتجاه إلى الله ، وتستقيم بشكر الخير ، وتطمئن إلى الاتصال بالمنعم ، فلا تخشى نفاد النعمة وذهابها ، ولا تذهب حسرات وراء ماينفق أو يضيع منها . فالمنعم موجود ، والنعمة بشكره تزكو وتزيد .

* * *

ويستمر موسى فى بيانه وتذكيره لقومه . ولـكنه يتوارى عن المشهد لتبرز المعركة الـكبرى

بين أمة الأنبياء وفريق المكذبين بالرسالات . وذلك من بدائع الأداء فى القرآن ، لإحياء المشاهد، ونقلها من حكاية تروى إلى مشهد ينظر ويسمع ، وتتحرك فيه الشخوص ، وتتجلى فيه السمات والانفعالات .. والآن إلى الساحة الكبرى التى يتلاشى فيها الزمان والمكان :

« ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ، قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله؟ جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردوا أيديهم فى أفواهم ، وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب » ..

هذا التذكير مع قول موسى . ولكن السياق منذ الآن يجعل موسى يتوارى ليستمر فى عرض قصة الرسالة فى جميع أزمانها . قصة الرسالة فى ذاتها ، والحقيقة النهائية لموقف المكذبين منها . وكأن موسى « راوية » يبدأ بالاشارة إلى أحداث الرواية الكبرى . ثم يدع أبطالها يتحدثون بعد ذلك ويتصرفون . وهى طريقة من طرق العرض للقصة فى القرآن ، تحول القصة المحكية إلى رواية حية كما أسلفنا . وهنا نشهد موكب الرسل الكريم ، يواجه البشرية متجمعة فى جاهليتها . حيث تتوارى الفواصل بين أجيالها وأقوامها . وتبرز الحقائق الكبرى مجردة عن الزمان والمكان ، كما هى فى حقيقة الوجود خلف حواجز الزمان والمكان :

« ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم : قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ؟ » فهم كثير إذن ، وهناك غير من جاء ذكرهم فى القرآن . مابين ثمود وقوم موسى . والسياق هنا لا يعنى بتفصيل أمرهم ، فهناك وحدة فى دعوتهم وفيما قوبلت به : « جاءتهم رسلهم بالبينات » الواضحات التى لا يلتبس أمرها على الإدراك العادى السليم . « فردوا أيديهم فى أفواههم، وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به؛ وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب » كما يفعل من يريد تمويج الصوت ليسمع عن بعد ، بتحريك كفه أمام فمه وهو يرفع صوته ذهابا وإيابا فيتموج الصوت ويسمع . يرسم السياق هذه الحركة التى تدل على جهرهم بالتكذيب والشك ، وإفحاشهم فى هذا الجهر ، وإتيانهم بهذه الحركة الغليظة التى لا أدب فيها ولا ذوق ، إمعانا منهم فى الجهر بالكفر .

ولما كان الذى يدعوهم إليه رسلهم هو الاعتقاد بالله الواحد ، فإن الشك فى هذه الحقيقة

الناطقة التى تدركها الفطرة وتدل عليها آيات الله المبثوثة فى ظاهر الـكون المتجلية فى صفحاته يبدو نـكيرا وقد استنـكر الرسل هذا الشك . والسماوات والأرض شاهدان .

« قالت رسلهم : أفى الله شك فاطر السماوات والأرض ؟ » أفى الله شك والسماوات والأرض تنطق الفطرة بأن الله أبدعها إبداعا وأنشأها إنشاء . قالت رسلهم هذا الاستنكار ، لأن السماوات والأرض آيتان هائلتان بارزتان فمجرد الإشارة إليهما يكفى ، ويرد الشارد إلى الرشد سريعا ، ولم يزيدوا على الإشارة شيئا لأنها وحدها تكفى ثم أخذوا يعددون نعم الله على البشر فى دعوتهم إلى الإيمان ، وفى إمهالهم إلى أجل يتدبرون فيـه ويتقون العذاب وهو : « يدعوكم ليغفر لـكم من ذنوبكم » والدعوة دعوة إلى الإيمان ، المؤدى إلى المغفرة . ولـكن السياق يعجل بالمغفرة لتتجلى نعمة الله ومنته . وعندئذ يبدوا عجيبا أن يدعى قوم إلى المغفرة فيـكون هذا تلقيهم للدعوة !

يدعوكم ليغفر لـكم ... « ويؤخركم إلى أجل مسمى » فلا يعجلكم بالإيمان فور الدعوة ، ولا يأخذكم بالعذاب فور التكذيب . إنما يمن عليكم منة أخرى فيؤخركم إلى أجل مسمى . إما فى هذه الدنيا وإما إلى يوم الحساب ، ترجعون فيـه إلى نفوسكم ، وتتدبرون آيات الله وبيان رسلكم . وهى رحمة وسماحة تحسبان فى باب النعم .. فهل هذا هو جواب دعوة الله الرحيم المنان ؟

هنا يرجع القوم فى جهالتهم إلى ذلك الاعتراض المجهول : « قالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا » .. وبدلا من أن يعتز البشر باختيار الله لواحد منهم ليحمل رسالته ، فإنهم لجهالتهم ينكرون هـذا الاختيار ، ويجعلونه مثار ريبة فى كذب الرسل المختارين ؟ ويعللون دعوتهم إليهم بأنها رغبة فى تحويلهم عما كان يعبد آباؤهم . ولا يسألون أنفسهم : لماذا يرغب الرسل فى تحويلهم ؟! وبطبيعة الجمود العقلى الذى تطبعه الوثنيات فى العقول لا يفكرون فيما كان يعبد آباؤهم ماقيمته ؟ ماحقيقته ؟ ماذا يساوى فى معرض النقد والتفكير ؟ ! وبطبيعة الجمود العقلى كذلك لا يفكرون فى الدعوة الجديدة ، إنما يطلبون خارقة ترغمهم على التصديق : « فأتونا بسلطان مبين » ..

ويرد الرسل .. لا ينكرون بشريتهم بل يقررونها ، ولـكنهم يوجهون الأنظار إلى منة الله فى اختيار رسل من البشر ، وفى منحهم مايؤهلهم لحمل الأمانة الكبرى : « قالوا : إن نحن إلا بشر مثلكم . ولـكن الله يمن على من يشاء من عباده » ويذكر السياق لفظ « يمن » تنسيقا للحوار مع جو

السورة . جو الحديث عن نعم الله . ومنها هذه المنة على من يشاء من عباده . وهى منة ضخمة لا على أفراد الرسل وحدهم . ولكن كذلك على البشرية التى تشرف بانتخاب أفراد منها لهذه المهمة العظمى . مهمة الاتصال والتلقى من الملأ الأعلى . فأما حكاية الإتيان بسلطان مبين ، وقوة غارقة فالرسل يبينون لقومهم أنها من شأن الله . ليفرقوا فى مداركهم المبهمة المظلمة بين ذات الله الإلهية ، وذواتهم هم البشرية ، وليمحصوا صورة التوحيد المطلق الذى لايلتبس بمشابهته فى ذات ولا صفة : « وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله » .. ومانعتمد على قوة غير قوته : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .. يطلقها الرسل حقيقة دائمة . فعلى الله وحده يتوكل المؤمن ، لايلتفت قلبه إلى سواه ، ولايرجو عونا إلا منه ، ولا يرتكن إلا إلى حماه .

ثم يواجهون الطغيان بالإيمان ، ويواجهون الأذى بالثبات ؛ ويسألون للتقرير والتوكيد : « وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ؟ ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون » ..

« وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا » .. إنها كلمة المطمئن إلى موقفه وطريقه . المالئ يديه من وليه وناصره . المؤمن بأن الله الذى يهدى السبيل لابد أن ينصر وأن يعين . وماذا يهم حتى ولو لم يتم فى الحياة الدنيا نصر إذا كان العبد قد ضمن هداية السبيل ؟

ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ؟ « ولنصبرن على ما آذيتمونا » لانتزحزح ولا نضعف ولا نتراجع ولا نهن ، ولا نتزعزع ولا نشك ولا نفرط ولا نحيد ..« وعلى الله فليتوكل المتوكلون »

وهنا يسفر الطغيان عن وجهه . لا يجادل ولا يناقش ولا يفكر ولا يتعقل ، لأنه يحس بهزيمته فى مجال التفكير والجدل ، فيسفر بالقوة المادية الغليظة التى لا يملك غيرها المتجبرون :

« وقال الذين كفروا لرسلهم : لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا » !

وعندما تسفر القوة الغاشمة عن وجهها الصلد لا يبقى مجال لدعوة ، ولا يبقى مجال لحجة ؛ ولا يكل الله الرسل إلى قوتهم ، فقوتهم ليست قوة العضل والسيف ، ولا قوة الحديد والنار . إنما هى قوة الحق والخير والإقناع . ولا مجال هنا للحق والخير والإقناع . إنما المجال للقوة تحطم

القوة . . هنا تتدخل القوة الكبرى فتضرب ضربتها المدمرة القاضية التي لا تقف لها قوة البشر المساكين ، وإن كانوا طغاة متجبرين :

« فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد »

« لنهلكن الظالمين » . . نون العظمة ونون التوكيد . . كلتاهما ذات ظل وإيقاع في هذا الموقف الشديد . لنهلكن المتجبرين المهددين ، الظالمين لأنفسهم وللحق وللرسل وللناس بهذا التهديد . . « ولنسكننكم الأرض من بعدهم » لا محاباة ولا جزافا ، إنما هي السنة الجارية العادلة : « ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد » . . ذلك الإسكان والاستخلاف لمن خاف مقامي ، فلم يتطاول ولم يتعال ولم يستكبر ولم يتجبر . وخاف وعيد ، فحسب حسابه ، واتقى أسبابه ، فلم يفسد في الأرض ، ولم يظلم في الناس . فهو من ثم يستحق الاستخلاف ، ويناله باستحقاق .

وهكذا تلتقي القوة الصغيرة الهزيلة ـ قوة الطغاة الظالمين ـ بالقوة الجبارة الطامة ـ قوة الجبار المهيمن المتكبر ـ فقد انتهت مهمة الرسل عند البلاغ المبين .

ووقف الطغاة المتجبرون بقوتهم الهزيلة الضئيلة في صف ، ووقف الرسل الداعون المتواضعون ومعهم قوة الأزل والأبد في صف . ودعا كلاهما بالنصر والفتح . . وكانت العاقبة كما يجب أن تكون :

« واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ، ومن ورائه عذاب غليظ » . .

والمشهد هنا عجيب . إنه مشهد الخيبة لكل جبار عنيد . مشهد الخيبة في هذه الأرض . ولكنه يقف هذا الموقف ، ومن ورائه تخايل جهنم وصورته فيها . وهو يسقى من الصديد السائل من الجسوم . يسقاه بعنف فيتجرعه غصبا وكرها ، ولا يكاد يسيغه ، لقذارته ومرارته ، والتقزز والتكره باديان نكاد نلمحهما من خلال الكلمات ! ويأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان ، ولكنه لا يموت ، ليستكمل عذابه ومن ورائه عذاب غليظ . .

إنه مشهد عجيب ، يرسم الجبار الخائب المهزوم ووراءه مصيره يخايل له على هذا النحو

المروع الفظيع . وتشترك كلمة « غليظ » فى تفظيع المشهد ، تنسيقا له مع القوة الغاشمة التى كانوا يهددون بها دعاة الحق والخير واللين . .

* * *

وفى ظل هذا المصير يجىء التعقيب مثلا مصورا فى مشهد يضرب للذين كفروا؛ ولفتة إلى قدرة الله على أن يذهب المكذبين ويأتى بخلق جديد . . ذلك قبل أن يتابع مشاهد الرواية فى الساحة الأخرى ، وقد أسدل الستار على فصلها الأخير فى هذه الأرض ، مخايلا بالساحة الأخرى:

« مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف . لا يقدرون مما كسبوا على شىء . ذلك هو الضلال البعيد » . .

ومشهد الرماد تشتد به الريح فى يوم عاصف مشهود معهود ، يجسم به السياق معنى ضياع الأعمال سدى ، لا يقدر على أصحابها الإمساك بشىء منها ، ولا الانتفاع به أصلا . يجسمه فى هذا المشهد العاصف المتحرك ، فيبلغ فى تحريك المشاعر له ما لا يبلغه التعبير الذهنى المجرد عن ضياع الأعمال وذهابها بددا .

هذا المشهد ينطوى على حقيقة ذاتية فى أعمال الكفار . فالأعمال التى لا تقوم على قاعدة من الإيمان ، ولا تمسكها العروة الوثقى التى تصل العمل بالباعث ، وتصل الباعث بالله . . مفككة كالهباء والرماد ، لا قوام لها ولا نظام . فليس المعول عليه هو العمل ، ولكن باعث العمل . فالعمل حركة آلية لا يفترق فيها الإنسان عن الآلة إلا بالباعث والقصد والغاية .

وهكذا يلتقى المشهد المصور مع الحقيقة العميقة ، وهو يؤدى المعنى فى أسلوب مشوق موح مؤثر . ويلتقى معهما التعقيب :

« ذلك هو الضلال البعيد » . . فهو تعقيب يتفق ظله مع ظل الرماد المتطاير فى يوم عاصف .. إلى بعيد !!

ثم يلتقى مع مشهد الرماد المتطاير ظل آخر فى الآية التالية ، التى يلتفت فيها السياق من مصائر المكذبين السابقين إلى المكذبين من قريش ، يهددهم بإذهابهم والاتيان بخلق جديد :

« ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز » ..

وخلق السماوات والأرض بالحق يوحى بالقدرة كما يوحى بالثبات . فالحق ثابت مستقر حتى فى جرسه اللفظى .. ذلك فى مقابل الرماد المتطاير إلى بعيد ؛ وفى مقابل الضلال البعيد .

وفى ضوء مصير المعاندين الجبارين فى معركة الحق والباطل يجىء التهديد : « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد » والقادر على خلق السماوات والأرض ، قادر على استخلاف جنس غير هذا الجنس فى الأرض . وظل الذهاب بالقوم يتسق من بعيد مع ظل الرماد المتطاير الذاهب إلى الفناء . « وما ذلك على الله بعزيز » وخلق السماوات والأرض شاهد . ومصارع المكذبين من قبل شاهدة . والرماد المتطاير شاهد من بعيد !

ألا إنه الإعجاز فى تنسيق المشاهد والصور والظلال .

* * *

ثم نرقى إلى أفق آخر من آفاق الإعجاز فى التصوير والأداء والتنسيق . فلقد كنا منذ لحظة مع الجبارين المعاندين . وقد خاب كل جبار عنيد . وكانت صورته فى جهنم تخايل له من ورائه وهو بعد فى الدنيا . فالآن نجدهم هناك ، حيث يتابع السياق خطواته بالرواية الكبرى ـ رواية البشرية ورسلها ـ فى المشهد الأخير . وهو مشهد من أعجب مشاهد القيامة وأحفلها بالحركة والانفعال والحوار بين الضعفاء والمستكبرين . وبين الشيطان والجميع :

« وبرزوا لله جميعا ـ فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعا . فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء ؟ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم . سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا محيص . وقال الشيطان لما قضى الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ؛ وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى . فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى . إنى كفرت بما أشركتمون من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم .

«وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها بإذن ربهم ، تحيتهم فيها سلام » .

لقد انتقلت الرواية . رواية الدعوة والدعاة ، والمكذبين والطغاة . انتقلت من مسرح الدنيا إلى مسرح الآخرة . « وبرزوا لله جميعا » الطغاة المكذبون وأتباعهم من الضعفاء المستذلين ومعهم الشيطان . . ثم الذين آمنوا بالرسل وعملوا الصالحات . برزوا جميعا لله مكشوفين . وهم مكشوفون لله دائما . ولكنهم الساعة يعلمون ويحسون أنهم مكشوفون ، لا يحجبهم حجاب ، ولا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واق . . برزوا وامتلأت الساحة ورفع الستار ، وبدأ الحوار :

« فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعا . فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ » . .

والضعفاء هم الضعفاء . هم الذين تنازلوا عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازلوا عن حريتهم الشخصية فى التفكير والاعتقاد والاتجاه ؛ وجعلوا أنفسهم تبعا للمستكبرين والطغاة . والضعف ليس عذرا ، بل هو الجريمة ، فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفا ، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه ، يعتزون به والعزة لله . وما يريد الله لأحد أن ينزل طائعا عن نصيبه فى الحرية — التى هى ميزته ومناط تكريمه — أو أن ينزل كارها . والقوة المادية — كائنة ما كانت — لا تملك أن تستعبد إنسانا يريد الحرية ، ويستمسك بكرامته الآدمية . فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد ، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه . أما الضمير . أما الروح . أما العقل ، فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها ، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال .

من ذا الذى يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعا للمستكبرين فى العقيدة ، وفى التفكير ، وفى السلوك ؟ ؟ لا أحد . لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة . فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة ، ولا لأنهم أقل جاها أو مالا أو منصبا أو مقاما . . كلا ، إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفا يلحق صفة الضعف بالضعفاء . إنما هم ضعفاء لأن الضعف فى أرواحهم وفى قلوبهم وفى نخوتهم وفى اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان .

وهم هنا على مسرح الآخرة فى ضعفهم وتبعيتهم للذين استكبروا يسألونهم : « إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء » وقد اتبعناكم فانتهينا إلى هذا المصير ، يتهددنا عذاب الله ؟ .

أم لعلهم وقد رأوا العذاب يهمون بتأنيب المستكبرين على قيادتهم لهم هذه القيادة ، وتعريضهم إياهم للعذاب ؟ إن السياق يحكى قولهم وعليه طابع الذلة على كل حال ! .

ويرد الذين استكبروا على ذلك السؤال :

« قالوا : لو هدانا الله لهديناكم . سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » . .

وهو رد يبدو فيه البرم والضيق : « لو هدانا الله لهديناكم » فعلام تلوموننا ونحن وإياكم فى طريق واحد إلى مصير واحد . إننا لم نهتد ونضللكم . ولو هدانا الله لقدناكم إلى الهدى معنا ، كما قدناكم حين ضللنا إلى الضلال . وهم ينسبون هداهم وضلالهم إلى الله . فيعترفون الساعة بقدرته وكانوا من قبل ينكرونه وينكرونها ، ويستطيلون على الضعفاء استطالة من لا يحسب حسابا لقدرة القاهر الجبار . ثم هم يؤنبون الضعفاء من طرف خفى ، فيعلنونهم بأن لا جدوى من الجزع كما أنه لا فائدة من الصبر . فقد حق العذاب ، ولا راد له من صبر أو جزع ، وفات الأوان الذى كان الجزع من العذاب يجدى ، فيرد الضالين إلى الهدى ؛ وكان الصبر على الشدة يجدى فتدركهم رحمة الله . لقد انتهى كل شىء ، ولم يعد هنالك مفر ولا مأوى : « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » .

لقد قضى الأمر ، وانتهى الجدل ، وسكت الحوار . . وهنا نرى على المسرح عجبا . نرى الشيطان . هاتف الغواية ، وحادى الغواة . نراه الساعة يلبس مسوح الكهان ، أو مسوح الشيطان ! ويتشيطن على الضعفاء والمستكبرين سواء ، بكلام ربما كان أقسى عليهم من العذاب:

« وقال الشيطان — لما قضى الأمر — إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم . وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى . فلا تلومونى ولوموا أنفسكم . ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى . إنى كفرت بما أشركتمون من قبل . إن الظالمين لهم عذاب أليم » .

الله ! الله ! أما إن الشيطان حقا لشيطان وإن شخصيته لتبدو هنا على أتمها كما بدت شخصية الضعفاء وشخصية المستكبرين فى هذا الحوار . .

إنه الشيطان الذى وسوس فى الصدور ، وأغرى بالعصيان ، وزين الكفر ، وصدهم عن استماع الدعوة .. هوهو الذى يقول لهم وهو يطعنهم طعنة أليمة نافذة ، حيث لايملكون أن يردوها عليه ــ وقد قضى الأمر ــ هو الذى يقول الآن ، وبعد فوات الأوان : « إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم » !

ثم يخزهم وخزة أخرى بتعييرهم بالاستجابة له ، وليس له عليهم من سلطان ، سوى أنهم تخلوا عن شخصياتهم ونسوا مابينهم وبين الشيطان فاستجابوا لدعوته الباطلة وتركوا دعوة الحق من الله « وما كانَ لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » !

ثم يؤنبهم ، ويدعوهم لتأنيب أنفسهم . يؤنبهم على أن أطاعوه ! : « فلا تلومونى ولوموا أنفسكم » !

ثم يخلى بهم ، وينفض يده منهم ، وهو الذى وعدهم من قبل ومناهم ، ووسوس لهم أن لا غالب لهم فأما الساعة فما هو بملبيهم إذا صرخوا ، كما أنهم لن ينجدوه إذا صرخ : « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى » وليس بيننا من صلة ولاولاء !

ثم يبرأ من إشراكهم به ويكفر بهذا الإشراك : « إنى كفرت بما أشركتمون من قبل » !

ثم ينهى خطبته الشيطانية بالقاصمة يصبها على أوليائه : « إن الظالمين لهم عذاب أليم » !

فيا للشيطان ! ويالهم من وليهم الذى هتف بهم إلى الغواية فأطاعوه ؟ ودعاهم الرسل إلى الله فكذبوهم وجحدوه !

وقبل أن يسدل الستار نبصر على الضفة الأخرى بتلك الأمة المؤمنة ، الأمة الفائزة ، الأمة الناجية :

« وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها بإذن ربهم ، تحيتهم فيها سلام » .. ويسدل الستار ..

فياله من مشهد ! ويالها من خاتمة لقصة الدعوة والدعاة مع المكذبين والطغاة !

* * *

وفى ظل هذه القصة بفصولها جميعا . فى الدنيا حيث وقفت أمة الرسل فى مواجهة الفرقة الظالمة « واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد » .. وفى الآخرة حيث شاهدنا ذلك المشهد الفريد ..

فى ظل القصة ومصائر الأمة الطيبة ، والفرقة الخبيثة ، يضرب الله مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة ، لتصوير سنته الجارية فى الطيب والخبيث فى هـذه الحياة ؛ فتكون خاتمة كتعليق الراوية على الرواية بعد إسدال الستار :

« ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ..

« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ؛ ويضل الله الظالمين ؛ ويفعل الله مايشاء » ..

إن مشهد الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ... والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة ، اجتثت من فوق الأرض ... مأخوذا من جو السياق ، ومن قصة النبيين والمكذبين ، ومصير هؤلاء وهؤلاء بوجه خاص . وشجرة النبوة هنا وظل ابراهيم أبى الأنبياء عليها واضح وهى تؤتى أكلها كل فترة ، أكلا جنيا طيبا . نبيا من الأنبياء يثمر إيمانا وخيرا وحيوية . .

ولكن المثل ـ بعد ـ تناسقه مع جو السورة وجو القصة ـ أبعد من هذا آفاقا ، وأعرض مساحة ، وأعمق حقيقة .

إن الكلمة الطيبة ـ دعوة كانت أو حركة أو عملا ـ لكالشجرة الطيبة . ثابتة سامقة مثمرة . . ثابتة لا تزعزعها الأعاصير ، ولا تعصف بها رياح الباطل ، ولاتقوى عليها معاول الطغيان ؛ وإن خيل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق فى بعض الأحيان .. سامقة متعالية ، تطل على الشر والظلم والطغيان من عل ؛ وإن خيل الى البعض أحيانا أن الشر يزحمها فى الفضاء .. مثمرة لاينقطع ثمرها ، لأن بذورها تنبت فى النفوس المتكاثرة آنا بعد آن ..

وإن الكلمة الخبيثة لكالشجرة الخبيثة ؛ قد تهيج وتتعالى وتتشابك ؛ ويخيل إلى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى . ولكنها تظل نافشة هشة ، وتظل جذورها فى التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الأرض . . وما هى إلا فترة ثم تجتث من فوق الأرض ، فلا قرار لها ولا بقاء .

ليس هذا وذلك مجرد مثل يضرب ، ولا مجرد عزاء للطيبين وتشجيع . إنما هو الواقع فى الحياة ، ولو أبطأ تحققه فى بعض الأحيان .

والخير الأصيل لا يموت ولا يذوى . مهما زحمه الشر وأخذ عليه الطريق .. والشر كذلك لا يعيش إلا ريثما يستهلك بعض الخير المتلبس به ـ فقلما يوجد الشر الخالص ـ وعندما يستهلك مايلابسه من الخير فلا تبقى فيه منه بقية ، فإنه يتهالك ويتهشم مهما تضخم واستطال .

إن الخير بخير ! وإن الشر بشر ! « ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » .. فهى أمثال مصداقها واقع فى الأرض ، ولكن الناس كثيرا ماينسونه فى زحمة الحياة .

وفى ظل الشجرة الثابتة ، التى يشارك التعبير فى تصوير معنى الثبات وجوه ، فيرسمها : أصلها ثابت مستقر فى الأرض ، وفرعها سامق ذاهب فى الفضاء على مد البصر ، قائم أمام العين يوحى بالقوة والثبات ..

فى ظل الشجرة الثابتة مثلا للكلمة الطيبة : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة» . وفى ظل الشجرة الخبيثة المجتثة من فوق الأرض مالها من قرار ولاثبات : « ويضل الله الظالمين » فتتناسق ظلال التعبير وظلال المعانى كلها فى السياق !

يثبت الله الذين آمنوا فى الحياة والدنيا وفى الآخرة بكلمة الإيمان المستقرة فى الضمائر، الثابتة فى الفطر ، المثمرة بالعمل الصالح . المتجدد الباقى فى الحياة . ويثبتهم بكلمات القرآن وكلمات الرسول ؛ وبوعده الحق بالنصر فى الدنيا ، والفوز فى الآخرة .. وكلها كلمات ثابتة صادقة حقة ، لا تتخلف ولا تتفرق بها السبل ، ولا يمس أصحابها قلق ولا حيرة ولا اضطراب .

ويضل الله الظالمين . بظلمهم وتجاوزهم لحدود الطريق ، وبعدهم عن النور الهادى ، واضطرابهم فى تيه الظلمات والأوهام والخرافات . يضلهم وفق سنته التى تنتهى بمن يظلم ويعمى عن النور إلى الضلال والتيه والشرور .

« ويفعل الله مايشاء » . . بإرادته المطلقة ، التى تختار الناموس ، فلا تتقيد به ولكنها ترضاه . حتى تقتضى الحكمة تبديله فيتبدل فى نطاق المشيئة التى لا تقف لها قوة ، ولا يقوم فى طريقها عائق ، والتى يتم كل أمر فى الوجود وفق ماتشاء .

وبهذه الخاتمة يتم التعقيب على القصة الكبرى للرسالات والدعوات . وقد استغرقت الشطر

الأول والأكبر من السورة المسماة باسم ابراهيم . أبى الأنبياء. والشجرة الظليلة الوارفة المثمرة خير الثمرات . والكلمة الطيبة المتجددة فى الأجيال المتعاقبة . تحتوى دائما على الحقيقة الكبرى حقيقة الرسالة التى لا تبتدل . وحقيقة الدعوة التى لا تتغير . وحقيقة التوحيد لله الخالق القادر الفعال لما يريد . .

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ ٱللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ * وَجَعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ؟ قُلْ : تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ .

« قُلْ لِعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا : يُقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ .

« ٱللهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ ، وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً ، فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ؛ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ لَا تُحْصُوهَا . إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ .

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ : رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ آمِنًا ، وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ ، فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ . رَبَّنَا لِيُقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ . فَٱجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ، وَٱرْزُقْهُمْ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ، وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ * ٱلْحَمْدُ لِلهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ، إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَاءِ * رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، رَبَّنَا

وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ .

« وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ، لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ، وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ .

« وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا : رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ . أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ؟ * وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ، وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ؟

« وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ، وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ، وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ، وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ ، وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

« هَٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ، وَلِيُنْذَرُوا بِهِ ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ، وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ » . .

يبدأ هذا الشوط الثانى من نهاية الشوط الأول، قائما عليه، متناسقا معه ، مستمدا منه .

لقد تضمن الشوط الأول رسالة الرسول — صلى الله عليه وسلم — ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم . وإرسال موسى لقومه ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويذكرهم بأيام الله . فبين لهم وذكرهم بنعمة الله عليهم ، وأعلن لهم ما تأذن الله به ؛ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد . . ثم عرض عليهم قصة النبوات والمكذبين بدأها ثم توارى عن السياق . وتابعت القصة أدوارها ومشاهدها حتى انتهت بالكافرين إلى ذلك الموقف ، الذى يستمعون فيه من الشيطان عظته البليغة ! حيث لا تنفع العظة ! .

فالآن يعود السياق إلى المكذبين من قوم محمد — صلى الله عليه وسلم — بعد ماعرض عليهم ذلك الشريط الطويل — أولئك الذين أنعم الله عليهم — فيما أنعم — برسول يخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويدعوهم ليغفر الله لهم ، فإذا هم يكفرون النعمة ، ويردونها ، ويستبدلون بها الكفر ، يؤثرونه على الرسول وعلى دعوة الإيمان . .

ومن ثم يبدأ الشوط الثانى بالتعجيب من أمر هؤلاء الذين يبدلون نعمة الله كفرا ، ويقودون قومهم إلى دار البوار ، كما قاد من قبلهم أتباعهم إلى النار . فى قصة الرسل والكفار .

ثم يستطرد إلى بيان نعم الله على البشر فى أضخم المشاهد الكونية البارزة . ويقدم نموذجا لشكر النعمة : إبراهيم الخليل — بعد أن يأمر الذين آمنوا بلون من ألوان الشكر هو الصلاة والبر بعباد الله — قبل أن يأتى يوم لا تربوا فيه الأموال يوم لا بيع فيه ولا خلال .

فأما الذين كفروا فليسوا متروكين عن غفلة ولا إهمال ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . . وأما وعد الله لرسله فهو واقع مهما يمكر الذين كفروا وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . .

وهكذا يتماسك الشوط الثانى مع الشوط الأول ويتناسق .

***

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ، جهنم يصلونها ، وبئس القرار ؟ .

« وجعلوا الله أندادا ليضلوا عن سبيله . قل : تمتعوا فإن مصيركم إلى النار » . .

ألم تر إلى هـذا الحال العجيب . حال الذين وهبوا نعمة الله ، ممثلة فى رسول وفى دعوة إلى الإيمان ، وفى قيادة إلى المغفرة ، وإلى مصير فى الجنة — فإذا هم يتركون هذا كله ويأخذون بدله « كفرا » ! أولئك هم السادة القـادة من كبراء قومك — مثلهم مثل الكبراء من كل قوم — وبهذا الاستبدال العجيب قادوا قومهم إلى جهنم ، وأنزلوهم بها — كما شاهدنا منذ قليل فى الأقوام من قبل ! — وبئس ما أحلوهم من مستقر ، وبئس القرار فيها من قرار ! .

ألم تر إلى تصرف القوم العجيب ، بعد ما رأوا ما حل بمن قبلهم — وقد عرضه القرآن

عليهم عرض رؤية فى مشاهد تلك القصة التى مضى بها الشوط الأول من السورة . عرضه كأنه وقع فعلا . وإنه لواقع . وما يزيد النسق القرآنى على أن يعرض ما تقرر وقوعه فى صورة الواقع المشهود .

لقد استبدلوا بنعمة الرسـول ودعوته كفرا . وكانت دعوته إلى التوحيد ، فتركوها « وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله » . . جعلوا لله أقرانا مماثلين يعبدونهم كعبادته ، وينسبون إليهم صفات من صفاته ، فيدعونهم لجلب الخير وكشف الضر . جعلوا لله هذه الأنداد ليضلوا الناس عن سبيل الله الواحد الذى لا يتعدد ولا تتفرق به السبل .

والنص يشير إلى أن كبراء القوم عمدوا عمدا إلى تضليل قومهم عن سبيل الله باتخاذ هذه الآلهة أندادا لله . فعقيدة التوحيـد خطر على سلطان الـكبراء ومصالحهم فى كل زمان . لا فى زمن الجاهلية الأولى ، ولـكن فى زمن كل جاهلية ، ينحرف الناس فيها عن التوحيد المطلق ، فى أية صورة من صور الانحراف ، فيسلمون قيادهم إلى كبرائهم ، وينزلون لهم عن حرياتهم وشخصياتهم ، ويخضعون لأهوائهم ونزواتهم ، ويتلقون شريعتهم من آراء الـكبراء لا من وحى الله : عندئذ تصبح الدعوة إلى توحيد الله خطرا على الـكبراء يتقونه بكل وسيلة . ومنها كان اتخاذ الآلهة أندادا لله فى زمن الجاهلية الأولى . ومنها اليوم اتخاذ شرائع من عمل البشر ، تأمر بما لم يأمر الله به ، وتنهى عما لم ينه الله عنه . فإذا واضعوها فى مكان الند لله فى النفوس المضللة عن سبيل الله . .

فيا أيها الرسول : « قل » للقوم : « تمتعوا » .. تمتعوا قليلا فى هذه الحياة إلى الأجل الذى قدره الله . والعاقبة معروفة : « فإن مصيركم إلى النار » .

ودعهم . وانصرف عنهم إلى « عبادى الذين آمنوا » انصرف عنهم إلى موعظة الذين تجدى فيهم الموعظة . الذين يتقبلون نعمة الله ولا يردونها ، ولا يستبدلون بها الـكفر . انصرف إليهم تعلمهم كيف يشكرون النعمة بالعبادة والبر بعباد الله :

« قل لعبادى الذين آمنوا : يقيموا الصلاة ، وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ، من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال » . .

قل لعبادى الذين آمنوا : يشكروا ربهم بإقامة الصلاة . فالصلاة أخص مظاهر الشكر لله .

وينفقوا مما أنعمنا عليهم به من الرزق سرا وعلانية . سرا حيث تصان كرامة الآخذين ومروءة المعطين ، فلا يكون الإنفاق تفاخرا وتظاهرا ومباهاة . وعلانية حيث تعلن الطاعة بالإنفاق وتؤدى الفريضة ، وتكون القدوة الطيبة فى المجتمع . وهذا وذلك متروك لحساسية الضمير المؤمن وتقديره للأحوال .

قل لهم : ينفقوا ليربو رصيدهم المدخر « من قبل أن يأتى يوم » لا تنمو فيه الأموال بتجارة ، ولا تنفع كذلك فيه صداقة ، إنما ينفع المدخر من الأعمال « يوم لا بيع فيه ولا خلال » ..

* * *

وهنا يفتح كتاب الكون على مصراعية فتنطق سطوره الهائلة بنعم الله التى لا تحصى . وتتوالى صفحاته الضخمة الفسيحة بألوان هـذه النعم على مد البصر : السماوات والأرض . الشمس والقمر . الليل والنهار . الماء النازل من السماء والثمار النابتة من الأرض . البحر تجرى فيه الفلك ، والأنهار تجرى بالأرزاق . . هـذه الصفحات الكونية المعروضة على الأنظار ، ولكن البشر لا ينظرون ولا يقرأون ولا يتدبرون ولا يشكرون : إن الإنسان لظلوم كفار . يبدل نعمة الله كفرا ، ويجعل لله أندادا ، وهو الخالق الرازق المسخر الكون كله لهذا الإنسان :

« الله الذى خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ماسألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار » ..

إنها حملة . إنها سياط تلذع الوجدان . . حملة أدواتها الهائلة السماوات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار والبحار والأنهار والأمطار والثمار وسياط ذات إيقاع ، وذات رنين ، وذات لذع لهذا الإنسان الظلوم الكفار .

إن من معجزات هذا الكتاب أنه يربط كل مشاهد الكون وكل خلجات النفس إلى عقيدة

التوجيد . ويحول كل ومضة فى صفحة الكون أو فى ضمير الإنسان إلى دليل أو إيحاء . . وهكذا يستحيل الكون بكل مافيه وبكل من فيه معرضا لآيات الله ، تبدع فيه يد القدرة ، وتتجلى آثارها فى كل مشهد فيه ومنظر ، وفى كل صورة فيه وظل .

والمشهد الهائل الحافل المعروض هنا لأيادى الله وآلائه ، تسير فيه خطوط الريشة المبدعة وفق اتجاه الآلاء بالقياس إلى الإنسان : خط السماوات والأرض . يتبعه خط الماء النازل من السماء والثمرات النابتة من الأرض بهذا الماء . فخط البحر تجرى فيه الفلك والأنهار تجرى بالأرزاق . . ثم تعود الريشة إلى لوحة السماء بخط جديد . خط الشمس والقمر . فخط آخر فى لوحة الأرض متصل بالشمس والقمر : خط الليل والنهار . . ثم الخط الشامل الأخير الذى يلون الصفحة كلها ويظللها : « وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . .

إنه الإعجاز الذى تتناسق فيه كل لمسة وكل خط وكل لون وكل ظل . فى مشهد الكون ومعرض الآلاء .

أفكل هذا مسخر للإنسان ؟ أفكل هذا الكون الهائل مسخر لذلك المخلوق الصغير ؟ السماوات ينزل منها الماء ، والأرض تتلقاه ، والثمرات تخرج من بينهما . والبحر تجرى فيه الفلك بأمر الله مسخرة . والأنهار تجرى بالحياة والأرزاق فى مصلحة الإنسان . والشمس والقمر مسخران دائبان لا يفتران . والليل والنهار يتعاقبان . . أفكل أولئك للإنسان . ثم لا يشكر ولا يذكر ؟ « إن الإنسان لظلوم كفار » !

« الله الذى خلق السماوات والأرض » . . وبعد ذلك يجعلون لله أنداد ، فكيف يكون الظلم فى التقدير ، والظلم فى عبادة خلق من خلقه فى السماوات أو فى الأرض ؟

« وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » والزرع مورد الرزق الأول ، ومصدر النعمة الظاهر . والمطر والإنبات كلاهما يتبع السنة التى فطر الله عليها هذا الكون ، ويتبع الناموس الذى يسمح بنزول المطر وإنبات الزرع وخروج الثمر ، وموافقة هذا كله للإنسان .

« وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره » . . بما أودع فى العناصر من خصائص تجرى الفلك على سطح الماء ؛ وبما أودع فى الإنسان من خصائص يدرك بها ناموس الأشياء ؛ وكلها مسخرة بأمر الله للإنسان .

« وسخر لكم الأنهار » .. تجرى فتجرى الحياة ، وتفيض فيفيض الخير ، وتحمل ماتحمل فى جوفها من أسماك وأعشاب وخيرات .. كلها للإنسان ولما يستخدمه الإنسان من طير وحيوان ..

« وسخر لكم الشمس والقمردائبين » .. لا يستخدمهما الإنسان مباشرة كما يستخدم الماء والثمار والبحار والفلك والأنهار .. ولكنه ينتفع بآثارهما ، ويستمد منها مواد الحياة وطاقاتها . فهما مسخران بالناموس الكونى ليصدر عنها ما يستخدمه هذا الإنسان فى حياته ومعاشه بل فى تركيب خلاياه وتجديدها .

« وسخر لكم الليل والنهار » . . كذلك وفق حاجة الإنسان وتركيبه ، وما يناسب نشاطه وراحته . ولوكان نهار دائم أو ليل دائم لفسد جهاز هذا الإنسان ؛ فضلا على فساد ماحوله كله ، وتعذر حياته ونشاطه وإنتاجه .

وليست هذه سوى الخطوط العريضة فى صفحة الآلاء المديدة . ففى كل خط من النقط مالا يحصى . ومن ثم يضم إليها على وجه الإجمال المناسب للوحة المعروضة وللجو الشامل«وآتاكم من كل ماسألتموه» من مال وذرية وصحة وزينة ومتاع «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » فهى أكبر وأكثر من أن يحصيها فريق من البشر ، أو كل البشر . وكلهم محدودون بين حدين من الزمان : بدء ونهاية . وبين حدود من العلم تابعة لحدود الزمان والمكان : ونعم الله مطلقة — فوق كثرتها — فلا يحيط بها إدراك إنسان ..

وبعد ذلك كله تجعلون لله أندادا ، وبعد ذلك كله لا تشكرون نعمة الله بل تردونها كفرا .. « إن الإنسان لظلوم كفار » !!!

* * *

وحين يستيقظ ضمير الإنسان ، ويتطلع إلى الكون من حوله ، فإذا هو مسخر له ، إما مباشرة ، وإما بموافقة ناموسه لحياة البشر وحوائجهم ؛ ويتأمل فيما حوله فإذا هو صديق له يرحمه الله ، معين له بقدرة الله ، ذلول له بتسخير الله . . حين يستيقظ ضمير الإنسان فيتطلع ويتأمل ويتدبر لا بد يرتجف ويخشع ويسجد ويشكر ، ويتطلع إلى ربه المنعم دائما ، حين يكون فى الشدة ليبدله منها يسرا ، وحين يكون فى الرخاء ليحفظ عليه النعماء .

والنموذج الكامل للإنسان الذاكر الشاكر هو أبو الأنبياء . إبراهيم . الذى يظلل هذه السورة ، كما تظللها النعمة وما يتعلق بها من شكران أو كفران .. ومن ثم يأتى به السياق فى مشهد خاشع ، يظلله الشكر ، وتشيع فيه الضراعة ويتجاوب فيه الدعاء ، فى نغمة رخية متموجة ،ذاهبة فى السماء .

« وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا البلد آمنا ، واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيرا من الناس ، فمن تبعنى فإنه منى ؛ ومن عصانى فإنك غفور رحيم . ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غيرذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون . ربنا إنك تعلم مانخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء . الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ، إن ربى لسميع الدعاء . رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ، ربنا وتقبل دعاء . ربنا اغفرلى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » ..

إن السياق يصور — إبراهيم عليه السلام— إلى جوار بيت الله الذى بناه فى البلد الذى تكفر قريش فيه بالله ، مرتكنة إلى البيت الذى بناه لعبادة الله ! فيصوره فى هذا المشهدالضارع الخاشع الذاكر الشاكر ليرد الجاحدين إلى الاعتراف ، ويرد الكافرين إلى الشكر ، ويرد الغافلين إلى الذكر ، ويرد الشاردين من أبنائه إلى سيرة أبيهم لعلهم يقتدون بها ويتأسون .

ويبدأ إبراهيم دعاءه : « رب اجعل هذا البلد آمنا » .. فنعمة الأمن نعمة ماسة بالإنسان ، عظيمة الوقع فى حسه ، متعلقة بحرصه على نفسه . والسياق يذكرها هنا ليذكر بها سكان ذلك البلد ، الذين يستطيلون بالنعمة ولا يشكرونها . وقد استجاب الله دعاء أبيهم إبراهيم فجعل البلد آمنا ، ولكنهم هم سلكوا غير طريق ابراهيم ، فكفروا النعمة وجعلوا لله أندادا وصدوا عن سبيل الله . ولقد كانت دعوة أبيهم التالية لدعوة الأمن : « واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام » ..

ويبدو فى دعوة ابراهيم الثانية تسليم ابراهيم المطلق إلى ربه ، والتجاؤه إليه فى أخص مشاعر قلبه . فهو يدعوه أن يجنبه عبادة الأصنام هو وبنيه ، يستعينه بهذا الدعاء ويستهديه . ثم ليبرز أن هـذه نعمة أخرى من نعم الله . وإنها لنعمة أن يخرج القلب من ظلمات الشرك وجهالاته إلى نور الإيمان بالله وتوحيده . فيخرج من التيه والحيرة والضلال والشرود ، إلى

المعرفة والطمأنينة والاستقرار والهدوء . إنها لنعمة يدعو ابراهيم ربه ليحفظها عليه ، فيجنبه هو وبنيه أن يعبد الأصنام .

يدعو ابرهيم دعوته هـذه لما شهده وعلمه من كثرة من ضلوا بهذه الأصنام من الناس فى جيله وفى الأجيال التى قبله ؛ ومن فتنوا بها ومن افتتنوا وهم خلق كثير : « رب إنهن أضللن كثيرا من الناس » . . فأما من تبع طريقى فلم يفتتن بها فهو منى ، ينتسب إلى ويلتقى معى فى الآصرة الـكبرى آصرة العقيدة « فمن تبعنى فإنه منى » . وأما من عصانى منهم فأفوض أمره اليك « ومن عصانى فإنك غفور رحيم » وفى هذا تبدو سمة ابراهيم العطوف الرحيم الأواه الحليم فهو لا يطلب لمن يعصيه من نسله ويحيد عن طريقه الهلاك ، ولا يستعجل لهم العذاب ، بل لا يذكر العذاب ، إنما يكلهم إلى غفران الله ورحمته . ويلقى على الجو ظلال المغفرة والرحمة ، وتحت هذا الظل يتوارى ظل المعصية ، فلا يكشف عنه ابراهيم الرحيم الحليم !

ويمضى إبراهيم فى دعائه يذكر إسكانه لبعض أبنائه بهذا الوادى المجدب المقفر المجاور للبيت المحرم ، ويذكر الوظيفة التى أسكنهم فى هذا القفر الجدب ليقوموا بها : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم » .. لماذا ؟ « ربنا ليقيموا الصلاة ».. فهذا هو الذى من أجله أسكنهم هناك ، وهذا هو الذى من أجله يحتملون الجدب والحرمان « فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم » وفى التعبير رقة ورفرفة ، تصور القلوب رفافة مجنحة ، وهى تهوى إلى ذلك البيت وأهـله فى ذلك الوادى الجديب إنه تعبير ندى يندى الجدب برقة القلوب . . « وارزقهم من الثمرات » . . عن طريق تلك القلوب التى ترف عليهم من كل فج . . لماذا ؟ أليأكلوا ويطعموا ويستمتعوا ؟ نعم ؛ ولـكن لينشأ عن ذلك ما يرجوه إبراهيم الشكور « لعلهم يشـكرون » . .

وهكذا يبرز السياق هدف السكنى بجوار البيت الحرام . . إنه إقامة الصلاة على أصولها كاملة لله . ويبرز هدف الدعاء برفرفة القلوب وهويها إلى أهل البيت ورزقهم من ثمرات الأرض . . إنه شـكر الله المنعم الوهاب .

وفى ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة واضحة فى موقف قريش جيرة البيت المحرم . . فلا صلاة قائمة لله ، ولا شكر بعد استجابة الدعاء ، وهوى القلوب والثمرات ! .

ويعقب إبراهيم على دعاء الله لذريته الساكنة بجوار بيته المحرم لتقيم الصلاة وتشكر الله . يعقب على الدعاء بتسجيله لعلم الله الذى يطلع على ما فى قلوبهم من توجه وشكر ودعاء ، فليس القصد هو المظاهرات والأدعية والتصدية والمكاء . إنما هو توجه القلب إلى الله الذى يعلم السر والجهر ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء : « ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ، وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء » .

ويذكر إبراهيم نعمة الله عليه من قبل ، فيلهج لسانه بالحمد والشكر شأن العبد الصالح يذكر فيشكر : « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق . إن ربى لسميع الدعاء » . وهبة الذرية على الكبر أوقع فى النفس . فالذرية امتداد ، وما أجل الإنعام به عند شعور الفرد بقرب النهاية ، وحاجته النفسية الفطرية إلى الامتداد . وإن إبراهيم ليحمد الله ، ويطمع فى رحمته : « إن ربى لسميع الدعاء » .

ويعقب على الشكر بدعاء الله أن يجعله مديما للشكر . الشكر بالعبادة والنهوض بالفريضة فيعلن بهذا تصميمه على العبادة وخوفه أن يعوقه عنها عائق ، أو يصرفه عنها صارف ، ويستعين الله على إنفاذ عزيمته وقبول دعائه : « رب اجعلنى مقيم الصلاة . ومن ذريتى . ربنا وتقبل دعاء » . .

وفى ظل هذا الدعاء تبدو المفارقة مرة أخرى فى موقف جيرة البيت من قريش . وهذا إبراهيم يجعل عون الله له على إقامة الصلاة رجاء يرجوه ، ويدعو الله ليوفقه إليه . وهم ينأون عنها ويعرضون ، ويكذبون الرسول الذى يذكرهم بما كان إبراهيم يدعو الله أن يعينه عليه هو وبنيه من بعده !.

ويختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين جميعا يوم يقوم الحساب ، فلا ينفع إنسانا إلا عمله ثم مغفرة الله فى تقصيره : « ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » . .

وينتهى المشهد الطويل : مشهد الدعاء الخاشع الضارع. ومشهد تعداد النعم والشكر عليها .. فى إيقاع موسيقى متموج رخى . . ينتهى بعد أن يخلع على الموقف كله ظلا وديعا لطيفا ، تهفو القلوب معه إلى جوار الله ، وتذكر القلوب فيه نعم الله . ويرتسم إبراهيم أبو الأنبياء

نموذجا للعبد الصالح الذاكر الشاكر ، كما ينبغى أن يكون عباد الله ، الذين وجه الحديث إليهم قبيل هذا الدعاء . .

* * *

ثم يكمل السياق الشوط مع « الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار » .. وهم ما يزالون بعد فى ظلمهم لم يأخذهم العذاب . والذين أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول لهم : « تمتعوا فإن مصيركم إلى النار » وأن ينصرف إلى عباد الله المؤمنين يأمرهم بالصلاة والانفاق سرا وعلانية « من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال » . .

يكمل السياق الشوط ليكشف عما أعد للكافرين بنعمة الله ؟ ومتى يلقون مصيرهم المحتوم :

« ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، مهطعين مقنعى رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء » . .

والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يحسب الله غافلا عما يعمل الظالمون . ولكن ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتعون ، ويسمع بوعيد الله ، ثم لا يراه واقعا بهم فى هذه الحياة الدنيا . فهذه الصيغة . تكشف عن الأجل المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة ، التى لا إمهال بعدها . ولا فكاك منها . أخذهم فى اليوم العصيب الذى تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع ، فتظل مفتوحة مبهوتة مذهولة ، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك . ثم يرسم مشهدا للقوم فى زحمة الهول مشهدهم مسرعين لا يلوون على شىء ، ولا يلتفتون إلى شىء . رافعين رؤوسهم لا عن إرادة ولكنها مشدودة لا يملكون لها حراكا . يمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب فلا يطرف ولا يرتد إليهم . وقلوبهم من الفزع خاوية خالية لا تضم شيئا يعونه أو يحفظونه أو يتذكرون ، فهى هواء خواء . .

هذا هو اليوم الذى يؤخرهم الله إليه . حيث يقفون هذا الموقف ، ويعانون هذا الرعب . الذى يرتسم من خلال المقاطع الأربعة مذهلا آخذا بهم كالطائر الصغير فى مخالب الباشق الرعيب : « مهطعين مقنعى رؤوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء » . فالسرعة

المهرولة المدفوعة فى الهيئة الشاخصة المكرهة المشدودة مع القلب الفزع الطائر الخاوى من كل وعى ومن كل إدراك . . كلها تشى بالهول الذى تشخص فيه الأبصار . .

هذا هو اليوم الذى يؤخرهم الله إليه ، والذى ينتظرهم بعد الإمهال هناك . فأنذر الناس أنه إذا جاء فلا اعتذار يومئذ ولا فكاك . . وهنا يرسم مشهدا آخر لليوم المنظور :

« وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ، فيقول الذين ظلموا : ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل . أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟ وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتبين لكم كيف فعلنا بهم ، وضربنا لكم الأمثال ؟ » .

أنذرهم يوم يأتيهم ذلك العذاب المرسوم آنفا ، فيتوجه الذين ظلموا يومئذ إلى الله بالرجاء ، يقولون : « ربنا » . . الآن وقد كانوا يكفرون به من قبل ويجعلون له أندادا « أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل » . . وهنا ينقلب السياق من الحكاية إلى الخطاب . كأنهم ماثلون شاخصون يطلبون . وكأننا فى الآخرة وقد انطوت الدنيا وما كان فيها . فها هو ذا الخطاب يوجه إليهم من الملأ الأعلى بالتبكيت والتأنيب ، والتذكير بما فرط منهم فى تلك الحياة : « أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ؟ » فكيف ترون الآن ؟ زلتم يا ترى أم لم تزولوا ؟ ! ولقد قلتم قولتكم هذه وآثار الغابرين شاخصة أمامكم مثلا بارزا للظالمين ومصيرهم المحتوم « وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال » فكان عجيبا أن تروا مساكن الظالمين أمامكم ، خالية منهم ، وأنتم فيها خلفاء ، ثم تقسمون مع ذلك : « ما لكم من زوال » ! وعند هذا التبكيت ينتهى المشهد ، وندرك أين صاروا ، وماذا كان بعد الدعاء وخيبة الرجاء .

وإن هذا المثل ليتجدد فى الحياة ويقع كل حين . فكم من طغاة يسكنون مساكن الطغاة الذين هلكوا من قبلهم . وربما يكونون قد هلكوا على أيديهم . ثم هم يطغون بعد ذلك ويتجبرون ويسيرون حذوك النعل بالنعل سيرة الهالكين ؛ فلا تهز وجدانهم تلك الآثار الباقية التى يسكنونها ، والتى تتحدث عن تاريخ الهالكين ، وتصور مصائرهم للناظرين . ثم يؤخذون إخذة الغابرين ، ويلحقون بهم وتخلو منهم الديار .

* * *

ثم يلتفت السياق بعد أن يسدل عليهم الستار هناك . إلى واقعهم الحاضر ، وشدة مكرهم بالرسول والمؤمنين ، وتدبيرهم الشر فى كل نواحى الحياة . فيلقى فى الروع أنهم مأخوذون إلى ذلك المصير ، مهما يكن مكرهم من العنف والتدبير :

« وقد مكروا مكرهم . وعند الله مكرهم . وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » ..

وإن كان مكرهم من القوة والتأثير حتى ليؤدى إلى زوال الجبال ، أثقل شىء وأصلب شىء ، وأبعد شىء عن تصور التحرك والزوال . فإن مكرهم هذا ليس مجهولا وليس خافيا وليس بعيدا عن متناول القدرة . بل إنه لحاضر « عند الله » يفعل به كيفما يشاء .

« فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله . إن الله عزيز ذو انتقام » ..

فما لهذا المكر من أثر ، وما يعوق تحقيق وعد الله لرسله بالنصر وأخذ الماكرين أخذ عزيز . « إن الله عزيز » قوى «ذو انتقام »لايدع الظالم يفلت ، ولا يدع الماكرينجو . وكلمةالانتقام هنا تلقىالظل المناسب للظلم والمكر ، فالظالم الماكريستحق الانتقام ، وهو بالقياس إلى الله تعالى يعنى تعذيبهم جزاء ظلمهم وجزاء مكرهم ، تحقيقا لعدل الله فى الجزاء .

وسيكون ذلك لامحالة : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات » ولا ندرى نحن كيف يتم هذا ، ولاطبيعة الأرض الجديدة وطبيعة السماوات ، ولامكانها ؛ ولكن النص يلقى ظلال القدرة القادرة التى تبدل الأرض وتبدل السماوات ؛ فى مقابل ذلك المكر الذى مهما اشتد فهو ضئيل عاجز حسير .

وفجأة نرى ذلك قد تحقق : « وبرزوا لله الواحد القهار » وأحسوا أنهم مكشوفون لايسترهم ساتر ، ولايقيهم واق . ليسوا فى دورهم وليسوا فى قبورهم . إنما هم فى العراء أمام الواحد القهار . . ولفظة القهار هنا تشترك فى ظل التهديد بالقوة القاهرة التى لايقف لها كيد الجبابرة . وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال .

ثم ها نحن أولاء أمام مشهد من مشاهد العذاب العنيف القاسى المذل ، يناسب ذلك المكر وذلك الجبروت :

« وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد . سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار » ..

فمشهد المجرمين . المنصوص على إجرامهم ، اثنين اثنين مقرونين فى الوثاق ، يمرون صفا وراء صف مشهد مذل دال كذلك على قدرة القهار . ويضاف إلى قرنهم فى الوثاق أن سرابيلهم وثيابهم

من مادة شديدة القابلية للالتهاب ، وهى فى ذات الوقت قذرة سوداء « من قطران » ففيها الذل والتحقير ، وفيها الإيحاء بشدة الاشتعال بمجرد قربهم من النار ! « وتغشى وجوههم النار » .. فهو مشهد العذاب الذل المتلظى المشتعل جزاء المكر والاستكبار ..

« ليجزى الله كل نفس ما كسبت . إن الله سريع الحساب » ..

ولقد كسبوا المكر والظلم فجزاؤهم القهر والذل . إن الله سريع الحساب . فالسرعة فى الحساب هنا تناسب المكر والتدبير الذى كانوا يحسبونه يحميهم ويخفيهم ويعوق انتصار أحد عليهم . فهاهم أولاء يجزون ما كسبوا ذلا وألما وسرعة حساب !

* * *

وفى النهاية تختم السورة بمثل ما بدأت ، ولكن فى إعلان عام جهير الصوت ، عالى الصدى ، لتبليغ البشرية كلها فى كل مكان :

« هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب »

انتهى الجزء الثالث عشر . ويليه الجزء الرابع عشر
مبدوءا بسورة الحجر

كتب للمؤلف

---

١ ـ فى ظلال القرآن	(فى ثلاثين جزءاً)	دار إحياء الكتب العربية
٢ ـ العدالة الاجتماعية فى الإسلام	(طبعة رابعة)	« « « «
٣ ـ معركة الإسلام والرأسمالية	(« ثانية)	دار الإخوان للطباعة والصحافة
٤ ـ السلام العالمى والإسلام	(« ثانية)	مكتبة وهبه شارع إبراهيم بعابدين
٥ ـ دراسات إسلامية	(« أولى)	مكتبة لجنة الشباب المسلم
٦ ـ التصوير الفنى فى القرآن	(« ثالثة)	دار المعارف
٧ ـ مشاهد القيامة فى القرآن	(« ثانية)	« «
٨ ـ النقد الأدبى : أصوله ومناهجه	(« ثانية)	دار الفكر العربى
٩ ـ أشواك	(« أولى)	دار سعد مصر بالفجالة
١٠ ـ طفل من القرية	(« «)	لجنة النشر للجامعيين
١١ ـ الأطياف الأربعة	(بالاشتراك مع إخوته)	« « «
١٢ ـ القصص الدينى	(بالاشتراك مع الأستاذ السحار)	« « «
١٣ ـ الشاطئ المجهول	(شعر)	. . . نفد
١٤ ـ كتب وشخصيات	(نقد)	. . . «
١٥ ـ مهمة الشاعر فى الحياة	(«)	. . . «
١٦ ـ نقد كتاب مستقبل الثقافة	(«)	. . . «
١٧ ـ المدينة المسحورة	(قصة)	. . . «

الكتب التالية

(١) نحو مجتمع إسلامى — (٢) أمريكا التى رأيت

(٣) حلم الفجر (شعر) — (٤) قافلة الرقيق (شعر)

